محاضرات في نظرية النظم

و في هذا يقول ابن خلدون:" إن القرآن نزل بلغة العرب – وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"[1].

و لكنَّك لو حاولت أن تنزع لفظا من ألفاظه لتأتي بشبيه له مكانه لايسعفك المعنى و لا السياق، وفي هذا يقول" أبو محمد بن عطية الأندلسي " [ت: 546هـ] : " وكتاب الله ؛ لو نُزِعت منه لفظة ، ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لما وُجِد ، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع ؛ لقصورنا عن مرتبة العرب . يومئذ . في سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، ومَيْزِ الكلام "[2].

و بهذا، وغيره كثير، تحدى القرآن الكريم العرب، أصحاب ومؤسسي اللسان، ليأتوا بمثله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ،لأنهم ،كما يقول عبد القاهر، أعجزتهم" مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كلِّ مثلٍ ومساق كلِّ خبرٍ وصورة كلِّ عِظةٍ وتنبيه وإعلام وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ، ومع كلِّ حجة وبرهان وصفة وتبيان،وبهرهم أنَّهم تأمَّلوه سورة سورة ، وعُشْرا عشرا ،وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور ،ونظاما ،والتئاما، وإتقانا، وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم فلم تملك أن تصول »[3].

بل إنَّ "أبا سليمان الخطابي " ، وهو أول من تحدث عن البلاغة الخاصة بالقرآن الكريم، بيَّن أن حسن اختيار الكلمات وانتقائها و جعلها كاللبوس الحسن اللائق للمعنى هي عمود بلاغة الخطاب عامة ، فكيف بذلك في بلاغة القرآن الكريم ؟

و تأسيسا على ذلك؛ فإن " عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمَّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمَّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة " ([4]).

1 –مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السابعة أمكتبة وهبة ، القاهرة،ص326.

[2] – ابن عطية :المحرر الوجيز : ج1ص 39 – ط: المجلس العلمي بفاس – تونس : 1395

[3] – دلائل الإعجاز :39

[4] – الخطابي :بيان إعجاز القرآن: ص 29 – ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تح : محمد خلف الله وزغلول سلام – دار المعرف بمصر :1387

بل إنه "لا معنى لهذه العبارات [البلاغة والفصاحة ..] وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها في ماله كانت دلالة ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية» (5).

ولو دققت النظر في قوله:" ويختار له اللفظ ..."كيف أنّه أوجب في اللفظ المختار خمس صفات :

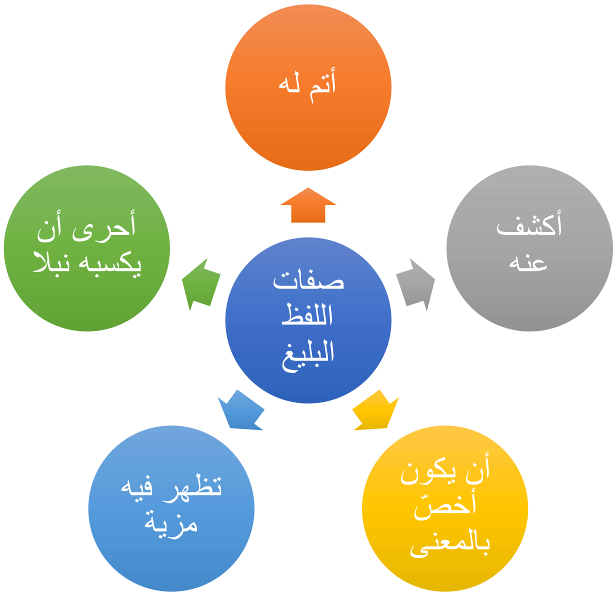

إن هذه الصفات لا تبرز إلا إذا وضع اللفظ في موضعه الذي يقبله السياق ويرتضيه المعنى و يختاره الذوق فإنّك، في بعض الحالات، ترى "الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثُمَّ تراها بعينها تثقُلُ علَيْكَ وتوحشك في موضع آخر»[6] .

و ذلك أن القرآن جاء متحديا لهم، و من هنا فإنه من المعلوم" أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غاياتٍ ينأى بعضها عن بعض، ومنازل يعلو بعضها بعضا، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه العرب، ومن عداهم تبع لهم، وقاصر فيه عنهم، وأنه لا يجوز أن الذي نزل في الوحي، يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي وكان فيه التحدي، أم زادوا على أولئك الأولين، أو كمُلوا في علم

---

[5] – دلائل الإعجاز : 43

[6] – دلائل الإعجاز : تح : شاكر ص 46.

البلاغة أو تعاطيها لما لم يكمُلوا له .كيف؟ ونحن نراهم يحمِلون عنهم أنُفسهم، و يبرأون من دعوى المداناة معهم، فضلا عن الزيادة عليهم"[7].

في هذا المسعى فإن البدايات الأولى لهذا النوع من التفسير ،كانت مع الصحابي الجليل ابن عباس .فهو يشكل البداية الحقيقية ، والمحطة الأولى،في التفسير اللغوي ،من اعتماده على الشعر العربي ،ولغة العرب في التفسير ، وهي البدايات التي استفاد منها كثير من المفسرين ،واللغويين الذين جاءوا بعده .مما جعل كثيرا من الدارسين يعدون جهود ابن عباس في التفسير هي النواة الأولى في تفسير القرآن الكريم تفسيرا لغويا وأدبيا[8].

تعريف اللفظ:

"لفظ: اللَّفْظُ: أَن تَرْمِي بِشَيْءٍ كَانَ فِي فِيكَ، والفِعلُ لَفَظ الشيءَ، يُقَالُ: لفَظْتُ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلفِظُه لَفْظًا: رَمَيْتُهُ."[9]...

وذكر صاحب كتاب التعريفات أن "اللفظ: ما يتلفظ به الإنسان – أو مَن في حكمه – مهملًا كان أو مستعملًا"، وقال في تعريف " المعنى: ما يقصد بشيء"[10].

تاريخ لفظة النظم:

---

7 – الرسالة الشافية 579 ، ملحقة بدلائل الإعجاز.

8 – موسوعة مدرسة مكة في التفسير : تفسير ابن عباس:للدكتور احمد العمراني .دار السلام :2011.

9 -ابن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت الطبعة: الثالثة، 1414 ه.

10 -الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط1 1983.

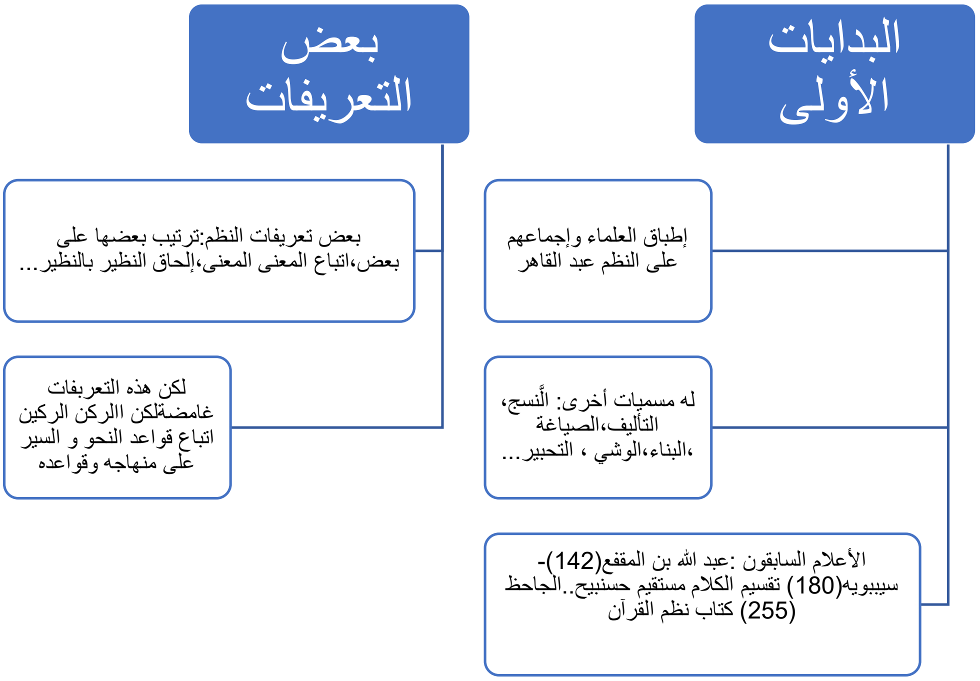

-ابن المقفع (142):" وَ جُلُّ الْأَدَبِ بِالْمَنْطِقِ، وَ جُلُّ الْمَنْطِقِ بِالتَّعَلُّم، لَيْسَ مِنْهُ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ مُعْجَمِهِ، وَ لاَ اسْمٌ مِنْ أَنْوَاعِ أَسْمَائِهِ إِلاَّ وَ هُوَ مَرْوِيٌّ مُتَعَلَّمٌ مَأْخُوذٌ عَنْ إِمَامٍ سَابِقٍ مِنْ كَلاَمٍ أَوْ كِتَابٍ؛ وَ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَبْتَدِعُوا أُصُولَهَا، وَ لَمْ يَأْتِهِمْ عِلْمُهَا إِلاَّ مِنْ قِبَلِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ.

فَإِذَا خَرَجَ النَّاسُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَمَلٌ أَصِيلٌ وَ أَنْ يَقُولُوا قَوْلاً بَدِيعًا؛ فَلْيَعْلَمِ الْوَاصِفُونَ الْمُخْبِرُونَ أَنَّ أَحَدَهُمْ – وَ إِنْ أَحْسَنَ وَ أَبْلَغَ – لَيْسَ زَائِدًا عَلَى أَنْ يَكُونَ كَصَاحِبِ فُصُوصٍ وَجَدَ يَاقُوتًا وَ زَبَرْجَدًا وَ مَرْجَانًا، فَنَظَمَهُ قَلاَئِدَ وَ سُمُوطًا وَ أَكَالِيلَ ، وَ وَضَعَ كُلَّ فَصٍّ مَوْضِعَهُ، وَ جَمَعَ إِلَى كُلِّ لَوْنٍ شِبْهَهُ وَ مَا يَزِيدُهُ بِذَلِكَ حُسْنًا، فَسُمِّيَ بِذَلِكَ صَانِعًا رَفِيقًا. وَ كَصَاغَةِ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ صَنَعُوا مِنْهَا مَا يُعْجِبُ النَّاسَ مِنَ الْحُلِيِّ وَ الْآنِيَةِ.

وَ كَالنَّحْلِ وَجَدَتْ ثَمَرَاتٍ أَخْرَجَهَا اللهُ طَيِّبَةً، وَ سَلَكَتْ سُبُلاً جَعَلَهَا اللهُ ذُلُلاً؛ فَصَارَ ذَلِكَ شِفَاءً وَ طَعَامًا وَ شَرَابًا مَنْسُوبًا إِلَيْهَا، مَذْكُورًا بِهِ أَمْرُهَا وَ صَنْعَتُهَا.

فَمَنْ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ كَلاَمٌ يَسْتَحْسِنُهُ أَوْ يَسْتَحْسِنُ مِنْهُ، فَلاَ يَعْجَبَنَّ إِعْجَابَ الْمُخْتَرِعِ الْمُبْتَدِعِ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا اجْتَنَاهُ كَمَا وَصَفْنَا.وَ مَنْ أَخَذَ كَلاَمًا حَسَنًا عَنْ غَيْرِهِ فَتَكَلَّمَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَ عَلَى وَجْهِهِ "الأدب الكبير و الأدب الصغير".

-سيبويه (ت180هـ) – القرن الثاني / الثامن ميلادي:

-القرن الثالث الهجري الجاحظ (ت 255هـ): قال أبو عثمان الجاحظ: "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً؛ فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"[11].

"ولكلِّ ضربٍ من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ، ولكلِّ نوعٍ مِن المعاني نوعٌ من الأسماء: فالسَّخيفُ للسخيف، والخَفِيفُ للخفيف، والجَزْلُ للجَزل، والإفصاحُ في مَوضع الإفصاح، والكِنايةُ في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال.
وإذا كان مَوْضِعُ الحديثِ على أنَّهُ مُضْحِكٌ ومُلْهٍ، وداخِلٌ في باب المزَاح والطِّيب، فاستعْمَلتَ فيه الإعراب، انقَلَبَ عن جِهَتِه، وإنْ كان في لفظه سُخْف وأبْدَلْتَ السَّخافَة بالجَزَالة، صارَ الحديثُ الذي وَضِع على أنْ يُسرَّ النُّفوسَ يُكْرُ بها، ويأْخُذُ بِأَكظامها."[12]

-قدامة بن جعفر ت(337 هـ/ 948 م) تناول قدامة هـّ قضيتي اللفظ والمعنى، وتنبه إلى حالات الائتلاف بينهما.

-علي بن عيسى الرماني (ت384هـ/949 م) بحث في قضية إعجاز القرآن البلاغي من خلال رسائله الثالث المعنونة(النكت في إعجاز القرآن)، وجعل بلاغة القرآن في أعلى المراتب، فما كان في أعلى طبقة فهو معجز، وما كان فيما دون ذلك ممكن كبلاغة الناس.

-محمد بن ابراهيم الخطابي (ت 388هـ/ 998) اعتنى الخطابي في كتابه (بيان اعجاز القرآن)بعلاقة الألفاظ بعضها ببعض داخل العبارة أو الآية، وقد قسم الكلام إلى أقسام ثلاثةّ : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لها ناظم.

-أبو هلال العسكري (ت395هـ): قسم العسكري كتابه (الصناعتين) الكلام الى بلاغة وفصاحة، فتكلم عن البلاغة و خصّها بالمعانيّ وتكلم عن الفصاحة وخصّها باللفظ، وما علاقة اللفظ بالمعنى إلا كعلاقة الروح بالأبدان الحية؛ علاقة ثابتة.

---

11 - العمدة في محاسن الشعر وآدابها ، ابن رشيق القيرواني،ص84.
12 -الجاحظ، البيان والتبيين، نقلًا عن الأخضر جمعي، (اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب)، ص44.

-الآمدي (371هـ)و القاضي الجرجاني(392هـ) وألّف الآمدي كتاب (الموازنة) للمقارنة بين أشعار أبي تمام وأشعار البحتري، وألّف القاضي الجرجاني كتاب (الوساطة) للحكم بين المتنبي وخصومه، وهما يمثلان أحسن ما وصل إليه النقد في القرن الرابع الهجري.

وقد أدرك الآمدي والجرجاني دور اللفظ في التعبير، وما يثيره من معان في النفس، واهتما بتآلف الألفاظ وتقاربها حتى لا تنبو لفظة على أخرى، مقارنين ذلك كّله بالآيات القرآنية.

يقول القاضي الجرجاني :

"وكانت العرب إنّما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلِّم السّبق لمن وصَف فأصاب، وشبّه فقارب، ولده فأغرز، ولكن كثرت وسائر أمثاله وموارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفِل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض."

-القرن الخامس الهجري برزت في هذه الفترة أعمال المتكلمين في اعجاز القرآن مثل: أبو بكر الباقلاني والقاضي عبد الجبار، وكذلك برزت أعمال المتأدبين مثل: ابن رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي.

الباقلاني :" وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها فما كان أقرب في تصويرها وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد وأشد تحقيقا في الإيضاح عن المطلب وأعجب في وضعه وأرشق في تصرفه وأبرع في نظمه – كان أولى وأحق بأن يكون شريفا.وقد شبهوا النطق بالخط والخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقة وصحة وملاحة ولطف حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال"[13].

القاضي عبد الجبار: «اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع؛ لأنّه إمّا أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها

[13] -الباقلاني ،إعجاز القرآن،ص119.

إلى بعض، لأنّه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنّما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون عداها"[14].

ابن رشيق القيرواني(ت456هـ):كتاب العمدة تحدث فيه عن اللفظ و المعنى أنهما متلازمان كتلازم الأرواح في الأجسام الحية.

ابن سنان الخفاجي (ت466هـ): خصّ الخفاجي الفصاحة بالألفاظ، وجعل البلاغة عامة في الألفاظ والمعاني.

ماهية النظم:

لغة لسان العرب:

"النَّظْمُ :التأْليفُ، نَظَمَه يَنْظِمُه نَظْماً ونِظاماً ونَظَّمه فانْتَظَم وتَنَظَّم.

ونظَمْتُ اللؤْلؤَ أي جمعته في السِّلْك، والتنظيمُ مثله، ومنه نَظَمْتُ الشِّعر ونَظَّمْته، ونَظَمَ الأَمرَ على المثَل.

وكلُّ شيء قَرَنْتَه بآخر أو ضَمَمْتَ بعضَه إلى بعض، فقد نَظَمْتَه.

والنَّظْمُ :المنْظومُ، وصف بالمصدر.

والنَّظْمُ :ما نظَمْته من لؤلؤٍ وخرزٍ وغيرهما، واحدته نَظْمه.

ونَظْم الحَنْظل: حبُّه في صِيصائه.

والنِّظامُ :ما نَظَمْتَ فيه الشيء من خيط وغيره، وكلُّ شعبةٍ منه وأَصْلٍ نِظامٌ.

ونِظامُ كل أَمر: مِلاكُه، والجمع أَنْظِمة وأَناظيمُ ونُظُمٌ.

الليث :النَّظْمُ نَظمُك الخرزَ بعضَه إلى بعض في نِظامٍ واحد، كذلك هو في كل شيء حتى يقال: ليس لأمره نِظامٌ أي لا تستقيم طريقتُه.

والنِّظامُ :الخيطُ الذي يُنْظمُ به اللؤلؤُ، وكلُّ خيطٍ يُنْظَم به لؤلؤ أو غيرهُ فهو نِظامٌ، وجمعه نُظُمٌ؛

وقال: مِثْل الفَرِيدِ الذي يَجري متى النُّظُم وفعلُك النَّظْمُ والتَّنْظِيمُ.

ونَظْمٌ من لؤلؤٍ، قال: وهو في الأصل مصدر، والانْتِظام :الاتِّساق.

وفي حديث أَشراط الساعة: وآيات تَتابعُ كنِظامٍ بالٍ قُطِعَ سِلْكُه؛ النِّظام :العِقْدُ من الجوهر والخرز ونحوهما،وسِلْكُه

---

14 - المغني ج 16ص 199وما بعدها.

خَيْطُه.

والنِّظامُ :الهَدْيَةُ والسِّيرة.

وليس لأمرهم نِظامٌ أي ليس له هَدْيٌ ولا مُتَعَلَّق ولا استقامة.

وما زالَ على نِظامٍ واحد أي عادةٍ.

وتَناظَمتِ الصُّخورُ: تلاصَقَت.

والنِّظامان من الضبِّ: كُشْيَتان مَنْظومتانِ من جانبي كُلْيَتَيْه طويلتان.

ونظاما الضبَّةِ وإنظاماها :كُشْيَتاها، وهما خيْطانِ مُنْتَظِمانِ بَيْضاً، يَنْتَدَّان جانبيها من ذَنَبها إلى أُذُنها.

ويقال: في بطنها إنْظامان من بَيْضٍ، وكذلك إنظاما السمكة.

وحكي عن أَبي زيد :أُنْظومتا الضبِّ والسمكةِ، وقد نَظَمَت ونَظَّمَت وأَنْظَمَت، وهي ناظمٌ ومُنَظِّمٌ ومُنْظِم، وذلك حين تمتلئ من أَصل ذنبها إلى أُذنِها بَيْضاً.

ويقال :نَظَّمَت الضبَّةُ بيضها تَنْظِيماً في بطنها، ونَظَمَها نظْماً، وكذلك الدجاجة أَنْظَمَت إذا صار في بطنها بَيْضٌ.

والأَنْظامُ :نفس البيض المنَظَّم كأَنه منظوم في سلك.

والإنْظامُ من الخرز: (* قوله» والانظام من الخرز» ضبط في الأصل والتكملة بالكسر، وفي القاموس بالفتح) خيطٌ قد نُظِمَ خَرزاً، وكذلك أَناظِيمُ مَكْنِ الضبَّة.

ويقال: جاءنا نَظْمٌ من جرادٍ،وهو الكثير.

ونِظامُ الرمل وأَنْظامتُه :ضَفِرتُه، وهي ما تعقَّد منه.

ونَظَمَ الحبْلَ: شَكّه وعَقَدَه.

ونظَمَ الخَوّاصُ المِقْلَ يَنْظِمُه :شَكّه وضَفَرَه.

والنَّظائِمُ: شَكائِكُ الحبْلِ وخَلَلُه.

وطعَنَه بالرُّمح فانْتَظمه أَي اخْتَلَّه.

وانْتَظَم ساقيه وجانبيه كما، قالوا اخْتَلَّ فؤادَه أي ضمها بالسِّنان؛ وقد روي: لما انْتَظَمْتُ فُؤادَه بالمِطْرِد والرواية المشهورة: اخْتَلَلْتُ فُؤادَه؛ قال أَبو زيد :الانْتِظامُ للجانِبَين والاخْتلالُ للفؤاد والكبد.

وقال الحسن في بعض مواعظه: يا اينَ آدم عليكَ بنَصيبك من الآخرة، فإنه يأْتي بك على نصيبك من الدنيا فيَنْتَظِمُهُ لك انْتِظاماً ثم يزولُ معك حيثما زُلْتَ.

وانتَظَمَ الصيدَ إذا طعنه أو رماه حتى يُنْفِذَه، وقيل: لا يقال انْتَظَمَه حتى يَجْمَعَ رَمْيَتَين بسهم أو رمح.

والنَّظْمُ :الثُّرَيّا، على التشبيه بالنظْمِ من اللؤلؤ؛ قال أَبو ذؤيب: فوَرَدْن، والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابئ الضُّرَباء فوق النظْمِ، لا يَتَتَلَّع ورواه بعضهم: فوق النجم، وهما الثريا معاً.

والنَّظْمُ أَيضاً: الدّبَرانُ الذي يلي الثُّريا.

ابن الأَعرابي :النَّظْمةُ كواكبُ الثُّريا.

الجوهري: يقال لثلاثة كواكبَ من الجَوْزاء نَظْمٌ.

ونَظْم :موضعٌ.

والنظْمُ :ماءٌ بنجد.

والنَّظيمُ :موضعٌ؛ قال ابن هَرْمة:فإنَّ الغَيْثَ قد وَهِيَتْ كُلاهُ ببَطْحاء السَّيالة، فالنَّظيمِ ابن شميل :النَّظيمُ شِعْبٌ فيه غُدُرٌ أو قِلاتٌ مُتواصلة بعضها قريب من بعض، فالشِّعْبُ حينئذ نَظيمٌ لأَنه نَظَم ذلك الماء، والجماعةُ النُّظُمُ.

وقال غيره :النَّظيمُ من الرَّكِيِّ ما تناسق فُقُرُهُ على نسق واحد."[15]

أ–جاء في لسان العرب: « نَظَم: النَّظْم التأْليفُ نَظَمه ينْظمه نَظْماً ونظاماً ونَظَّمه فانْتَظَم وتَنَظَّم ونظَمتُ اللؤْلؤَ أي جمعته في السلْك،والتنظيم مثله،ومنه نَظَمتُ الشِّعر ونَظَّمته ونَظَم الأَمر على المَثل وكلُّ شيءٍ قَرَنْتَه بآخر أو ضممتَ بعضه إلى بعض فقد نَظَمْته ،والنَّظْم المَنْظوم وصف بالمصدر،والنَّظْم:ما نظَمته من لؤلؤٍ وخرزٍ وغيرهما،ونظام كل أَمرٍ: ملاكُه 1والجمع أَنْظمة وأَناظيم ونُظُم،والانْتظام الاتِّساق

النظم في الاصطلاح :أ- ورد في معجم التعريفات :النظم هو تأليف الكلمات والجمل مترتِّبة المعاني، متناسبة الدلالات على حسب ما يقتَضيه العقْل.

وقيل: الألفاظ المترتِّبةُ المسوقةُ المعتبر دلالاتُها ما يقتَضيه العقْل . ب- وجاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب بأن النظم هو :هو التّأليف الشِّعري عامةً الذي يلتزِم قواعد متواضع عليها من حيث الوزن خاصةً والعروض عامةً، وهو عند عبد القاهر الجرجاني تركيب

[15] ابن منظور ،لسان العرب،ج12/ص575.

الكلماتِ والتنسيقُ بينها بحيثُ يأخُذُ بعضها ببعض، ولذلك يوجب على الأديب أن يدرس النحو إذْ به يعرفُ ما ينشأُ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعاني المتجددة المختلفة... فالكلمةُ المفردةُ لا قيمةَ لها عنده قبل دخولها في التركيب، ودليلُ ذلك أنّك ترى الكلمةَ فتروقُك في موضعٍ، ثم تراه هي بعينها في موضعٍ آخر فتعفُها.

فالبلاغة عند عبد القاهر ترجع إلى اللفظ لا لذاته بمفرده، بل باعتباره إفادته المعنى عند التركيب، وقوام الأدب في نظرِهِ المعنى واللَّفظُ تابع له. وقد يعني النَّظم قرض الشعر .

ج- أما عبد القاهر الجرجاني فإنه يعرف النظم بأنه :"تعليقُ الكَلم بعضها ببعضٍ وجعلُ بعضها بسببِ بعضٍ"، كما يجعل وجوه التعلق ثلاثة: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما، ويشرح وجوه التعلق شرحا وافيا ...ويؤكد أن: « نظم الكلام يقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس. " و" ليس النظم في مجمل الأمر عنده إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها."

فمدار النظم على عند عبد القاهر الجرجاني هو« معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه " ، "ولا معنى النظم عنده إلا توخى معاني النحو فيما بين الكلم."[16]

" .فلا معنى للنظم غير توخي معاني النحو وأحكامه ، فإنك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا تدعي به مؤلفا، وتشبه معه بمن عمل نسجا أو صنع على الجملة صنيعا، ولم يتصور ان تكون قد تخيرت لها المواقع "[17].

وفي شان النظم يضيف عبد القاهر الجرجاني: « وقد علمتَ إطباقَ العلماء على تعظيمِ شأنِ النَّظْمِ وتفخيمِ قَدرِهِ والتَّنويه بذكره وإجماعهم أن لا فضلَ مع عدمه ولا قدر لكلامٍ إذا هو لم يستقم لَه ولو بلغَ في غَرابة معناهما بلغ . وبتَّهم الحكم بأنه الذي لا تَمام دونَه ولا قوام إلا به وأنه القُطب الذي

---

[16] - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط2، ،1998، ص240

[17] - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط2، ،1998، ص240.

عليه المدار والعمود الذي به الاستقلال . وما كان بهذا المحلّ من الشَرف وفي هذه المنزلة من الفضلِ وموضوعاً هذا الموضع من المزية وبالغاً هذا المبلغَ من الفضيلة كان حرى بأن توقَظَ له الهِمم وتُوكَلَ به النُّفوس وتحرك له الأفكار وتُستخدم فيه الخواطر"[18] .

يقول الجرجاني في دلائل الإعجاز :"و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو و تعمل على قوانينه و أصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها و تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها و ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب و فروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك (زيد منطلق) و (زيد ينطلق) و (ينطلق زيد)و (منطلق زيد)و (زيد المنطلق)و (المنطلق زيد)و (زيد هو المنطلق)و (زيد هو المنطلق) وفي الشرط و الجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: "إن تخرج أخرج"و" و إن خرجت خرجت"و" إن تخرج فأنا خارج" و "أنا خارج إن خرجت" و "أنا إن خرجت خارج". و في الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: ,,جاءني زيد مسرعا." و"جاءني يسرع"و "جاءني و هو مسرع" أو "هو يسرع" و "جاءني قد أسرع "و "جاءني و قد أسرع" فيعرف لكل من ذلك موضعه و يجيء به حيث ينبغي له، و ينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصه في ذلك المعنى، فيضع كل ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بـ"ما" في نفي الحال، و بـ "لا" إن أراد نفي الاستقبال و بـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون و أن لا يكون، و بـ "إذا" فيما علم أنه كائن، و ينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء و موضع الفاء من موضع "ثم"و موضع "أو"من موضع "أم" و موضع "لكن " من موضع "بل" و يتصرف في التعريف و التنكير، و التقديم و التأخير في الكلام كله، و في الحذف و التكرار، و الإضمار و الإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه و يستعمله على الصحة و على ما ينبغي له.

[18] -عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط2، ،1998، ص69.

هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا و خطؤه إن كان خطأ إلى النظم، و يدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، و وضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، و استعمل في غير ما ينبغي له." [19]

كاد الجرجاني أن يتعدى الجملة في نظرية النظم، و يتخطى حدودها بنظرة واسعة وتمثيل شاسع حين استعان بمثال الصبغة في شرح مزية النظم، حيث قال:"و اعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه و الحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق و ينضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه و لا تقضي له بالحذق و الأستاذية وسعة الذرع و شدة المنه حتى تستوفي القطعة."[20]

إنّ المتتبع للدراسات البلاغة العربية القديمة يجد فيها بحوثا كثيرة ذات اتجاه نصي[21]، لأن البلاغة ،كما يرى المحدثون "هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية وعلم النص"[22].

ولعل من أهم مباحثها مبحث الوصل والفصل، ومن ذلك أيضاً صحة التقسيم وهو تقسيم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، وصحة التفسير، وهو أن يورد معاني فيحتاج إلى شرح أحوالها...[23] ومنها العكس وهو أن تعكس الكلام" فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول"[24].

19 - الجرجاني .دلائل الإعجاز .ص64:-65.
20 -الجرجاني دلائل الإعجاز .ص.124:
21-ينظر: حبك النص "منظورات من التراث العربي": محمد العبد، مجلة الدراسات اللغوية، مج الثالث، ع الثالث، رجب ورمضان 1422هـ/ أكتوبر وديسمبر 2001، ص ص 138-220.

22-بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل ، ص250.
23-ينظر: أبوهلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: تحقيق الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1409هـ/ 1989م، ص 375 – 382.

24-المرجع نفسه: ص 411.

والعكس بهذا المفهوم استراتيجية يستعملها كثير من المتحدثين؛ لتعطيهم وقفة عقلية لصياغة الجملة التالية، ومنها الرجوع وهو" أن يذكر الشيء ثم يرجع عنه كقول القائل: ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك."[25]

والرجوع إضافة إلى علاقته بالتماسك الدلالي، هو استراتيجية حجاجية، ومما له علاقة بالتماسك الدلالي الاستطراد " وهو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سبباً إليه ..."[26].

ومن تلك المباحث أيضاً: جمع المؤتلف والمختلف...، والتوشيح، وشرحه أبو هلال العسكري بأنه ما كان مبتدأ الكلام فيه ينبئ عن مقطعه وأوله يخبر عن آخره[27]، وغير ذلك من المحسنات اللفظية، والمعنوية التي جعلها القدماء كالحلية الزائدة مع أن لها دوراً مهماً في التماسك اللفظي والدلالي للنص.

ولكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو مبحث الوصل والفصل، الذي له ارتباط وثيق بمصطلح بلاغة الخطاب من حيث التماسك النصي له، وقد تميّز عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في تناوله لهذا المبحث في إطار نظرية النظم؛ ولذلك فهو يقول في أهمية الوصل والفصل " اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب".[28]

وينظر عبد القاهر الجرجاني إلى الوصل والفصل من خلال (العطف)، أو عدمه، كما ينظر عبد القاهر الجرجاني (471هـ) إلى عطف جملة على جملة أخرى معتمداً على مقولة المحل الإعرابي؛ لذلك فعطف الجمل عنده على ضربين:

---

[25]-المرجع نفسه: ص 443.

[26]-المرجع نفسه: ص 443.

[27]- ينظر: المرجع نفسه، ص 452، وص 425.

[28]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص 158.

أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، "وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد... فإذا قلت: (مررت برجلٍ خُلُقه حَسَن، وخَلْقه قبيح) كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جَرٍّ بأنها صفة للنكرة، ونظائر ذلك تكثر، والأمر فيها يسهل"[29].

والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني: وذلك أن "تعطف على الجملة العارية الموضع الإعراب جملة أخرى، كقولك: (زيد قائم وعمرو قاعد) (والعلم حسن والجهل قبيح)... لا سبيل لنا إلى أن ندعي أن (الواو) أشركت الثانية في إعرابٍ قد وجب للأولى بوجه من الوجوه".[30]

يذهب عبد القاهر الجرجاني(471هـ)، بناء على ذلك، إلى أنه يجب مراعاة أشياء أخرى، وتلك الأشياء ترجع إلى المعاني؛ بحيث تكون جهة جامعة في مثل هذه الحالة .[31]

وفي الفصل بين الجمل يرى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) أنه يكون في الجملة المؤكدة للتي قبلها، وكذلك حينما تختلف جهة الكلام من الحكاية إلى الخبر والعكس... ويذهب بعد ذلك إلى التفصيل في مواضع الفصل تفصيلاً دقيقاً يسنده بآيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربي[32] ويرى الفقي أن مصطلح التماسك مرادف لمصطلح التعليق عند عبد القاهر (471هـ)[33]، وهذا قد لا يكون صحيحاً على إطلاقه وعمومه، ولا يساعد عليه النص المقتبس من الجرجاني عند الفقي، ولكن الأولى بالصواب، فيما أرى، عدُّ مصطلح (النظم) أو (الضم) عند عبدالقاهر (471هـ) أقرب إلى مصطلح التماسك في المفهوم من مصطلح التعليق[34].

---

[29]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص153.

[30]- المصدر نفسه، ص 153.

[31]-ينظر: المصدر نفسه: ص: 153- 154.

[32]- ينظر: المصدر نفسه: ص: 155-156.

[33]- صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ، ج1، ص 78.

[34]-ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص): ج1، المرجع السابق، ص:75-76

ولأجل ذلك فإن نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) من أهم النظريات في الجهد اللغوي العربي عند القدماء، وقد تناولها اللسانيون، والنقاد، والبلاغيون، والمفكرون بالدرس.

ولكن من المهم أن يعرف في هذا المقام أن عبد القاهر الجرجاني (471هـ) يقيم نظريته في (النظم) على النحو؛ إذ يقول: "ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيّته حقّه من النظر، وتدبّرته حقّ التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم ..."[35]

مواقف النقاد المحدثين من نظرية النظم:

وإذا كان عبد القاهر (471هـ) قد أقام علم النظم على دراسة التبعيات القواعدية من حيث علاقتها بالمفاهيم، كما تقول إلهام أبوغزالة وعلي خليل حمد، فإنهما قد أشارا بمزيد من الإكبار لمباحث متعددة عند عبد القاهر لها علاقة بالنظرية النصية التي يعملان عليها.[36]

ولهذا كله وجب معرفيا تبيان مواقف النقاد العرب المحدثين من نظرية النظم عند الجرجاني (471هـ)، وعليه يمكن القول، استنباطا من الدراسات العربية الحديثة التي اهتمت بهذا الشأن، بأن البلاغيّين والنقّاد العرب المحدثين يقفون في تقييمهم لنظرية النظم عند الجرجاني (471هـ) مواقف متباينة، هي –كما ألفناها – "امتداد لمواقفهم المبدئية من التراث العربيّ برمّته: فمنهم من يقف منها موقف الرضى والإعجاب إلى الحدّ الذي يدفعه إلى وضعها على قدم المساواة مع أحدث ما انتهت إليه المدارس والاتجاهات النقديّة الحديثة في الغرب، إن لم نقل: تفضيلها عليها.

فيصبح هذا الإعجاب البالغ حدّ التقديس سجناً لصاحبه، يحبس نفْسه فيه، ويحول بينه وبين الانفتاح على منجزات الآخر، الذي يصبح بمنزلة الخصم؛ فلا يعود كافياً أن نفخر بما عندنا ونعتدّ به،

35– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، المصدر السابق، ص: 335-336.

36–ينظر: روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر)، إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية ، ص 18.

بل لا بدّ – في المقابل– من أن نطعن في منجزات ذلك الآخر ونقلّل من شأنها، حتّى نثبت أنّنا بماضينا أفضل منه بحاضره[37].

ويمكننا أن نعدّ من هؤلاء –في منتصف القرن الماضي– محمد مندور، الذي دفعه حماسه للجرجاني وإعجابه بنظريّته في النظم إلى وضعه جنباً إلى جنب مع كبار النقّاد المحدَثين في الغرب، يقول في كتابه "النقد المنجي عند العرب": "وفي الحقّ إنّ عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلّها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهمّيّته، مذهب يشهد لصاحبه بعبقريّة لغويّة منقطعة النظير. وعلى أساس هذا المذهب كوّن مبادئه في إدراك "دلائل الإعجاز". مذهب عبد القاهر هو أصحّ وأحدث ما وصل إليه عليم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري الثبْت فرديناند دي سوسير **Ferdinand de saussure** الذي توفي سنة 1913م"[38].

ونجد إلى جانب مندور مصطفى ناصف، والولي محمد. إذ يقول الأوّل: "لقد عجبتُ حين خُيّل إليّ –أكثر من مرة– أنّ بعض منحنيات النقد القديم ذات الأهميّة، لا تنفصل انفصالاً حادّاً عن النقد المعاصر"[39].

وبحرص أشدّ يقول الثاني: "وما تزال التساؤلات التي أثارها الجرجاني بشأن الاستعارة تحتفظ إلى اليوم بالكثير من المعاصرة. لقد كان وهماً ما تصوّرناه – ونحن واقعون تحت تأثير النقد الاجتماعي والنفسي والتاريخي والانطباعي – من إمكان تجاوز البلاغة القديمة باعتبارها واعد جامدة. وإذا كانت هذه البلاغة قد فقدت الكثير من المواقع قي المؤسسات التعليمية، فإن ثورة علوم اللغة وما أعقب ذلك قد نبّه الأذهان إلى أنّ البلاغة لن تموت، وخاصة إذا كانت بحجم بلاغة الجرجاني. إنّ العودة إلى

37-ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص): ج1، المرجع السابق، ص76.

38- محمد مندور، النقد المنهجي عند العربدار نهضة مصر، القاهرة، ص333-334.

39- الولي محمد، الصورة الشعريّة في الخطاب البلاغي النقدي: المركز الثقافي، بيروت، 1990، ص 66.

الجرجاني هي عودة إلى نصّ لم يفقد جِدّته، نصّ يثير من التساؤلات أكثر ممّا يقدّم من أجوبة قاطعة، نصّ يفتح باب الاجتهاد ويتركه كذلك"[40].

وإلى هذه الجماعة يمكننا أن ننسب عبد العزيز حمودة، الذي لا يقل اندفاعه وحماسه عن أيٍّ ممّن أسلفنا، ولا سيّما في ثلاثيّته: المرايا المحدّبة، والمرايا المقعرة، والخروج من التيه؛ التي تجشّم فيها مؤونة نقد النظريّات النقدية الحداثيّة وما بعد الحداثيّة، سواء في نسخها الغربيّة أو العربيّة، ثمّ حاول أن يقدّم بديلاً عربيّاً أصيلاً، وكانت نظريّة الجرجاني أفضل ما يمكن أن يتشبّث به لتحقيق ذلك الغرض، وإن كان يحاول جاهداً أن يظهر بمظهر المعتدل ويحتال في ذلك بكثير من عبارات الاحتراز والاحتياط، ولكنّ مَيْله لا يلبث أن يغلبه.

يقول حمودة في "المرايا المقعرة": "إنّ النظم يمثّل مكوّناً في نظرية لغوية لا تقلّ سماتها وضوحاً عن سمات أيّ نظرية لغويّة حديثة. والواقع أنّ مفهوم "النظم"يمثّل العمود الفقريّ لنظرية لغوية عربية لا تقلّ تكاملاً -من ناحية اتّساقها على الأقلّ- عن أيّ نظريّة لغوية حديثة، بما في ذلك نظرية فرديناند دي سوسير التي اتخذتها علوم اللغة نقطة انطلاق إلى تشعيبات وتفريعات لغوية ونقدية شبه لا نهائية"[41].

ويقول متجاوزاً نطاق الجرجاني (471هـ): "بعد كلّ ما قدّمناه، لا أظنّ أنّنا بحاجة إلى إعادة تأكيد أنّ العقل العربيّ قد عكف منذ القرن الثالث الهجريّ وحتّى نهاية القرن الخامس على تطوير نظريّة لغويّة لا تختلف في مكوناتها كثيراً عن مفردات علم اللغويات الحديث الذي أسّس له فرديناند دي سوسير في بداية القرن العشرين "[42].

المزلق الحقيقي الذي يقع فيه حمودة وربّما غيره من أصحاب هذه الفئة هو أنّه يجد نفسه مضطراً إلى نقد - بل نقض وهدم -كلّ ما أتت به المدارس النقديّة الحديثة، ليتّخذ من ذلك مدخلاً إلى اقتراح

---

[40]- مصطفى ناصف، النقد العربيّ – نحو نظرية ثانية: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص 22.

[41]- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، (نحو نظرية نقدية عربية): ص 220.

[42]-المرجع نفسه، ص 243.

بديل عربيّ، هو – في الحقيقة – غير موجود في الحاضر العربيّ، وإنّما في التراث العربيّ، في القرن الخامس الهجريّ، وبالتحديد: عند عبد القاهر الجرجاني!

ألا يمكننا أن نقدّم نظريّة عربيّة، دون أن نبدأ بهدم منجزات الحداثة الغربيّة؟! ألا يمكن الاحتفاظ بالنموذجين معاً؟! لماذا نضيّق واسعاً؟!

فنحن إمّا أن نتبعهم، ونسير في أذيالهم، وإمّا أن ننشغل بهجائهم، والطعن في كلّ ما يأتي من جهتهم، وبيان مساوئه، وإظهار التوجّس والارتياب ممّا يتضمّنه – بلا شكّ – من شرور ومضارّ ! أنا أتفهم أن يبدأ حمودة أو غيره من النقاد العرب بنقد طرائق العرب في الاستفادة من النظريات والمدارس الغربيّة؛ لأنّها – في الواقع – قاصرة ومضطربة وعقيمة، تفتقر إلى النضج والوعي.

فلماذا يصرّ الناقد العربيّ على أن يتجاوز" بنقده هذا الحدّ ليطال به مدارس القوم ومذاهبهم في عقر دارهم؟! وكأنه لا يعلم أنّ لنشأتها عندهم أسباباً تاريخيّة وثقافية تجعل من هذه النشأة في تلك البيئة أمراً طبيعيّاً ومنطقيّاً، وأنّها لم تُجلب إليهم جلباً كما هي حالها عندنا، وإنّما ثمّة ظروف وملابسات حضاريّة خاصّة بهم هي التي دعت إلى نشأتها وتسييرها في الاتجاهات التي تسير فيها"[43].

وأما الذين انبهروا بحضارة الغرب الحديث في كلّ نواحيها: الماديّة والفكريّة، فهم الذين يقفون في الطرف الآخر على النقيض تماماً من الطرف الأوّل، وأدّت بهم المقارنة بين تلك الحضارة المفعمة بالحياة والتقدّم وبين الواقع العربيّ الراكد المتخلّف إلى ازدراء هذا الواقع والاستخزاء منه.

---

[43]- محمد العبد، حبك النص "منظورات من التراث العربي" ، ص 136.

لم يكتفوا بذلك، بل سحبوا هذا الازدراء على التراث العربيّ بجملته، وأبوا أن يتّخذوا منه أساساً لمعاودة بناء حضارة عربيّة جديدة، وإنّما عكفوا على محاولة اصطناع نسخة عربيّة من الحضارة الغربيّة الحديثة لتكون هي ذلك الأساس الذي سينطلق منه العرب لبناء حضارتهم في هذا العصر.[44]

حيث تجاهلوا في "ذلك بديهيّات لا يمكن تجاوزها أو التحايل عليها بهذه السهولة، أبْيَنُها: أنّ المدارس العلميّة والاتجاهات الفكريّة في الغرب إنّما نشأت تلبية لحاجات خاصّة بتلك الشعوب، وكانت نتيجةً لصراعات تاريخيّة طويلة، فهي بالنسبة إليهم بمنزلة المكتسبات الحضاريّة الذاتية، التي يصعب نقلها -في صورتها النهائيّة- إلى أيّ مجتمع آخر لتؤدّي الوظيفة الحضاريّة نفسها التي أدّتها في مجتمعاتها الأمّ؛ بسبب اختلاف السياق التاريخي والحضاريّ بين تلك المجتمعات وغيرها، في حين أنّ "نظريّة الجرجاني"نشأت في تربية عربيّة، لتلبية حاجات فكريّة خاصّة بالمجتمع العربيّ – في حينها –، وهي حاجات لها أبعادها الدينيّة والأدبيّة، وحتّى السياسيّة"[45].

مرتكزات بلاغة الخطاب من خلال نظرية النظم

بعدما بيّنا هذه المواقف الثلاثة، واخترنا أكثرها علميّة وموضوعيّة ومنهجية، حسب ما أرى، وأعظمها نفعاً في خدمة كلّ من التراث والحاضر، والحقّ أنّ الجرجاني (471هـ) لم يكن سوى نموذج؛ فإنّ هذه المواقف الثلاثة لا ينفك الباحث يجدها أثناء دراسته لأيّ علَم من أعلام التاريخ أو أيّة نظريّة أو مذهب أو حتّى فكرة اشتمل عليها تراثه.

يدفعنا الحديث عن الجرجاني (471هـ) إلى النظر في نظرية النظم عنده، التي بنيت على أسس علمية حيث صرّح الجرجاني (471هـ) في أول كتابه "دلائل الإعجاز" بهدفه من تأليفه، وهو أن يمكّن القارئ من وضع يده على الخصائص والمزايا التي تعرض في الكلام، حتى يفضُل بعضه بعضاً، ثمّ يتعاظم

44-ينظر: محمد العبد، حبك النص "منظورات من التراث العربي" ، ص 138.

45-المرجع نفسه، ص 138.

ذلك الفضل حتى يبلغ حدّ الإعجاز الذي تنقطع عنده أعناق البلغاء، وتنحسر دونه مطامعهم، فيقرّون جميعاً بالعجز.

وقد بحث في معنى "الفصاحة" و"البلاغة" و"البيان" و"البراعة"، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فوجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلْب، وموضع الدفين ليُبْحث عنه فيُخْرَجَ، وكما يفتح لك الطريقُ إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها.[46]

ووجد المعوَّل على أن ههنا "نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغة وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأنَّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه، سبيلُها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضُل هناك النظمُ النظمَ، والتأليفُ التأليفَ، والنسجُ النسجَ، والصياغةُ الصياغةَ، ثم يعظُم الفضلُ، وتكثُر المزيّة، حتى يفوق الشيء نظيرَه والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدّم منه الشيءُ الشيءَ، ثم يزداد فضله ذلك ويترق منزلةً فوق منزلةٍ، ويعلو مرقباً بعد مرقب، ويُستأنف له غاية بعد غايةٍ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتَحْسَر الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في العجز"[47].

ولا يكفي –عند الجرجاني– في بيان هذه الخصائص والمزايا العباراتُ المجملة التي لا تشفي الغُلّة، بل لا بدّ من تحديدها تحديداً دقيقاً، ووصفها وصفاً مفصّلاً، وإيراد أمثلةٍ كافية لها، كما هي الحال في كافّة أنواع الصناعات.

وفي هذا يقول: "ولا يكفي أن تقولوا: إنّه خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكَلِم بعضها على بعض، حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها، وتذكروا لها أمثلة، وتقولوا : "مثلُ كيت وكيت"، كما يذكر لك من تستوصفه عمل الديباج المنقَّش ما تعلم به وجه دقة الصنعة، أو يعمله بين

46-ينظر: عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز: ، المصدر السابق، ص:34-35.

47- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص34-35.

يديك، حتى ترى عِياناً كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء، وماذا يذهب منها طولاً وماذا يذهب منها عرضاً، وبِمَ يبدأ وبم يُثنّي وبم يُثلث، وتُبصر من الحساب الدقيق ومن عجيب تصرّف اليد، ما تعلم معه مكان الحِذق وموضع الأستاذية"[48].

وأمّا الفصاحة عنده فهي "خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها الفائدة"، أو ما أشبه ذلك من القول المجمَل، كافياً في معرفتها، ومغنياً في العلم بها، لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها. فكان يكفي في معرفة نسج الديباج الكثيرِ التصاوير أن تعلم أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص، وضم لطاقات الإبريسم بعضها إلى بعض على طرق شتى. وذلك ما لا يقوله عاقل"[49].

وإذا تمكّن المتعلّم من ذلك أصبح قادراً على التمييز في الكلام بين الصواب والخطأ، والمفاضلة بين الإساءة والإحسان، بل بين الإحسان والإحسان. يقول الجرجاني: "وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علماً تُمِرّ فيه وتُحلي، حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويَفْصِل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تُفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين"[50].

وإذا كان الأمر كذلك، تبين" أنه لا يكفي في علم "الفصاحة" أن تنصِب لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسَلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء، حتى تفصِّل القول وتُحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تَعرِض في نظم الكلِم وتعدّها واحدة واحدة، وتُسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصَّنَع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطّع، وكل آجُرّة من الآجر الذي في البناء البديع"[51].

---

[48]-المصدر نفسه، ص36.

[49]-المصدر نفسه، ص36.

[50]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص37.

[51]-المصدر نفسه، ص37.

وفيما يخصّ موطن تلك الخصائص، فإنّ الجرجاني لا يقبل بأن يكون "هو الألفاظ المفردة، لأنّه لا مجال للمفاضلة بينها؛ فهي مستوية في الدلالة على المعاني التي وُضعت لها؛ كما أنّ الكلمة قد تقع من النفس موقعاً عجيباً رائقاً في موضع ثمّ ينعكس ذلك في موضع آخر"[52].

ولا يمكن أن تكون الكلمة بمفردها لها مزية دون النظر إلى موقعها في النظم، فلا "تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن يُنظَر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخفّ، وامتزاجها أحسن، ومما يَكُد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحداً يقول: "هذه اللفظة فصيحة" إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟

وهل قالوا: "لفظة متمكنة ومقبولة"وفي خلافه: قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنُبُوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية في مؤدّها؟

وهل تشكّ إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[53]، فتجلّى لك منها الإعجاز، وبَهرك الذي ترى وتسمع – أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلِم بعضها ببعض، وأنْ لم يعرِض لها الحسنُ والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تناتَجَ ما بينها وحصَل من مجموعها؟ [54]

---

[52]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص38.

[53]–سورة هود/ 44.

[54]–ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص38.

لو أُخذت لفظة من بين أخواتها وأفردت، هل تؤدي من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي"، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها.

ومن هنا فإن الشك ينتفي لأن مبدأ العظمة في أنْ نوديت الأرض، ثم أُمرت، ثم في أنْ كان النداء "بيا"دون "أيّ"، نحو "يا أيتها الأرض"، ثم إضافة "الماء"إلى "الكاف"، دون أن يقال: "أبلعي الماء"، ثم أنْ أُتبع نداء الأرض وأمْرها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمْرَها كذلك بما يخصّها، ثم أنْ قيل: "وغيض الماء"، فجاء الفعل على صيغة "فُعِل"الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقُضي الأمر"، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو: "استوت على الجودي"، ثم إضمار "السفينة"قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة "قيل"في الخاتمة "بقيل "في الفاتحة ؟

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتُحصرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها – تعلُّقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالي في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق العجيب؟ فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً، أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردّة، ولا من حيث هي كلِم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تَعَلُّق له بصريح اللفظ.[55]

وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتُوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع"في بيت الحماسة:

تلفّتُّ نحو الحيّ حتى وجدتُني

وجِعتُ من الإصغاء ليتاً وأَخْدَعا [56]

---

[55]-ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص42.

[56]-البيت للصمّة بن عبد الله القُشَيريّ، في شرح حماسة أبي تمام للتبريزي، ج3، ص114. نقلاً عن محقق دلائل الإعجاز، ص47، حاشية1.

وبيت البحتري:

وإني وإن بلّغْتَني شرف الغنى

وأعتقتَ من رِقّ المطامع أخدعي [57]

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دهر قوِّمْ من أخدعيك، فقد

أضججت هذا الأنام من خُرُقكْ [58]

فتجد لها من الثّقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الرَّوْح والخفة ومن الإيناس والبهجة"[59].

وليس المقصود بنظم الألفاظ مجرّد تتابعها في النطق كما هي الحال في نظم الحروف، إذن لاستوى الناس كلّهم في العلم بحسن النظم ورداءته؛ لأنّهم جميعاً يُحسّون بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً. ولكنّ المقصود به تناسق دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل.

ونستخلص مما سبق، بأن الاعتبار في النظم هو للمعاني وليس للألفاظ؛" بل إنّ الألفاظ في ذلك تبَعٌ للمعاني، فهي تترتّب تلقائياً بحسَب الترتيب الذي تنشأ عليه المعاني في النفس، ولا يحتاج المتكلّم أن يفكّر مرّتين: مرة في ترتيب المعاني، وأخرى في ترتيب الألفاظ، وإنّما ينحصر تفكيره في المعنى؛ فإذا ترتّبت المعاني جاءت الألفاظ مرتّبة على نسقها من غير استئناف نظر جديد"[60].

---

[57]-البيت في ديوان البحتري. انظر الحاشية 2 للمحقّق، ص47.

[58]-البيت في ديوان أبي تمّام. انظر الحاشية 3 للمحقّق، ص47 أيضاً.

[59]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص: 44-47.

[60]-المصدر نفسه، ص53.

وزيادة على ذلك "فلا يُتَصوَّر أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقَفَوْت بها آثارها، وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[61].

ويرى الجرجاني في ترتيب المعاني في النفس، والضوابط التي يخضع لها، أنّ مرجع الأمر في ذلك إلى قوانين النحو وأصوله؛ "ذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه: فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق"و "زيد ينطلق" و"ينطلق زيد" و"منطلق زيدٌ " و"زيد المنطلق" و"المنطلق زيدٌ" و"زيدُ هو المنطلق" و"زيدٌ هو منطلقٌ ".

وفي "الشرط والجزاء"إلى الوجوه التي تراها في قولك": إنْ تَخرُج أخرج " و"إن خرجتَ خرجتُ" و"إن تخرج فأنا خارج" و"أنا خارج إن خرجتَ " و"أنا إن خرجتَ خارج ". وفي "الحال"إلى الوجوه التي تراها في قولك: "جاءني زيد مسرعاً"، وجاءني يُسرع"، و"جاءني وهو مسرعٌ أو وهو يسرع" و"جاءني قد أسرع" و"جاءني وقد أسرع ".[62]

فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به من حيث ينبغي له. وينظر في "الحروف" التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاصّ معناه، نحو أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ "إنْ" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في "الجمل" التي تُسْرَد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقُّه الوصلُ موضعَ "الواو" من موضع "الفاء"، وموضع "الفاء" من موضع "ثمّ"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكنْ"من موضع "بلْ".[63]

---

[61]-المصدر نفسه، ص: 53-54.

[62]-ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص: 53-54.

[63]-ينظر: المصدر نفسه، ص: 49-56.

ونجده في الكلام كلّه، كما يرى الجرجاني،يتصرف في "التعريف والتنكير والتقديم والتأخير، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيُصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له. هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إنْ كان صواباً، وخطؤه إنْ كان خطأً، إلى "النظم"، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووُضِع في حقّه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأُزيل عن موضعه، واستُعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيّة وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدتَه يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[64].

لتبيان صحة مذهبه لا يقصر الجرجاني في سوق الأمثلة الدالّة على ذلك، والمتمثلة في أنّ حسن النظم إنّما يأتي من جودة التصرّف في قواعد النحو، وأنّ رداءته إنّما تأتي من سوء التصرف فيها[65].

من أجل ذلك كان المؤلّف قد عقد في أوّل كتابه مبحثاً دافع فيه عن علم النحو عند مَن يغُضّ منه ويشكّك في جدواه وحثّ على تعلّمه والتقوّي فيه؛ لأنه المرتكز الذي ستقوم عليه نظريّته في بقيّة الكتاب.

تجليات بلاغة الخطاب عند الجرجاني:

ولتبيان ذلك والتأكيد عليه وجدناه يقول: "وأمّا زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم[66]، وأشبه بأن يكون صدّاً عن كتاب الله، وعن معرفة معانية؛ ذاك لأنهم لا يجدون بدّاً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون

[64]-المصدر نفسه، ص: 81-83.

[65]- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز: ، المصدر السابق، ص83-86.

[66]-أي زهدهم في رواية الشعر وحفظه، وذمّهم الاشتغال بعلمه، ينظر ص11 من المصدر نفسه.

هو المستخرِجِ لها، وأنه المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلامٍ ورجحانه حتى يُعرَض عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يُرجَع إليه، لا ينكر ذلك إلا من ينكر حسّه، وإلا من غالط في الحقائق نفسَه. وإذا كان الأمر كذلك، فليت شعري ما عُذر من تهاون به وزهد فيه، ولم يرَ أن يستقيه من مصبّه، ويأخذه من معدنه، ورضي لنفسه بالنقص والكمالُ لها مُعْرِض، وآثر الغَبِينة وهو يجد إلى الربح سبيلاً"[67].

لا يعدو أن يكون النظم، عند الجرجاني، تمثيلاً للمعاني النحويّة، فلهذا من البديهي أن تكون الجملة هي محور عمل الناظم؛ لأنّها هي الوحدة الكلاميّة التي تظهر فيها العلاقات النحويّة الإسناديّة، كما هو الحال بين المبتدأ والخبر، وبين الفعل والفاعل والمفعول... الخ، وما قد يعتريها من تقديم وتأخير، وحذف، وإضمار وإظهار ... الخ.

ولكنّ النطاق قد يتّسع أحياناً ليضمّ جملتين أو أكثر، عندما "تتّحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأوّل"[68]، ومن ذلك المزاوجةُ بين معنيين في الشرط والجزاء معاً؛ كقول البحتري[69]:

إذا ما نهى الناهي فلجّ بيَ الهوى

أصاخت إلى الواشي فلجّ بها الهجرُ

ومنه ما قد يضمّ عدّة أبيات؛ كقول بعضهم[70]:

لو أنّ ما أنتمُ فيه يدوم لكم

---

[67]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص28.

[68]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المصدر السابق، ص 93.

[69]-ديوان البحتري، انظر الحاشية2 لمحقق دلائل الإعجاز، ص 93.

[70]-لم يقف المحقق على صاحب هذه الأبيات، انظر تعليقه عليها ص94، حاشية5

ظننتُ ما أنا فيه دائماً أبداً

لكنْ رأيت الليالي غير تاركةٍ

ما سرّ من حادثٍ أو ساء مطّرداً

فقد سكنتُ إلى أنّي وأنّكُمُ

سنستجدّ خلاف الحالتين غداً

ويبيّن الجرجاني أن موضعُ المزيّة في هذه الأبيات هو في قوله: "سنستجدّ خلاف الحالتين غداً"؛ لأنّ فيه جمعاً لطيفاً لِما قسّمه قبلُ، بالإضافة إلى حسن بنائه، ولطف توصّله إليه.

ومذهب الجرجاني إلى أنّ المعاني النحويّة هي الأساس الذي تقوم عليه البلاغة، والمعيار الذي به يُفاضَل بين قول وقول، لا يعني أنّ الكلام متى استقام على قواعد النحو وسلم من الخطأ فقد صار له فضلُ شرفٍ ومزيّة؛ فإنّ البحث في تقويم اللسان وعصمته من الزلل في الإعراب ليس ها هنا مجاله، وإنّما مجاله كتب النحو. أمّا في البلاغة فإنّ ما يُعتدّ به هو التصرّف في المعاني النحوية تصرّفاً فنيّاً إبداعيّاً يُسفر عن "أمور تدرَك بالفِكَر اللطيفة، ودقائق يوصَل إليها بثاقب الفهم"[71].

وكذلك تجنّب الخطأ فليس هو من البلاغة حتّى "يُحتاج في التحفّظ منه إلى لطفِ نظر، وفضلِ رويّة، وقوّة ذهن، وشدّة تيقّظ"[72]، وهذا هو المعيار المعتمد عليه في الموازنة بين كلام وآخر، والمفاضلة بينهما.

71- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص98.

72-المصدر نفسه، ص98.

وللإشارة، فإنّ عبد القاهر، وإن كان يُقيم نظريّته في النظم على أساسٍ من علم النحو، فليس هو نحويّاً، ولا يعنيه أن يدرس المباحث النحويّة من تقديمٍ وتأخير، وإظهار وإضمار، وحذف... من حيث هي كذلك؛ وإنّما من حيث إمكانيّة توظيفها من أجل صناعة عبارات بليغة. فمثل قول الجاحظ مثلاً: "جنّبك الله الشُّبهة، وعصمك من الحَيْرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبّب إليك التثبُّت، وزيّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك برْد اليقين... "- ليس في نظمه وتأليفه أيّ فضل، وإن سلم من الخطأ، وجرى على قواعد النحو؛ لأنّه ليس فيه دقّة صناعة، ولا سبيل فيه إلى التخيّر[73].

وكما أنّ النكت البلاغيّة قد تلتبس عند طائفة من الدارسين بمباحث النحو لاتّكائها عليها، فإنّها قد تلتبس عند طائفة أخرى بالمحسّنات البديعيّة والاستخدامات المجازيّة للألفاظ، فيُظَنّ أنّ المزيّة للألفاظ حين تضمّنت جناساً أو طباقاً.

أو حين أحيلت عن معانيها المعجميّة إلى معانٍ جديدة اقتضتها العلاقات والقرائن في داخل العبارة؛ مع أنّ الذي أوجب المزية ليس هو ذلك، وإنّما مكانها في تألف الجملة ونظمها. ومثاله ما في قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: 4]؛ فإن الناس دأبوا على نسبة الشرف فيه إلى الاستعارة وإفرادها بالمزيّة والفضل.

الأمر كذلك؛ لأنّنا لو قلبنا العبارة فقلنا (واشتعل شيب الرأس) لذهب ما فيها من روعة وفخامة، مع أنّ الاستعارة لم تزل قائمة. فلم يبق إلا أن يكون مكمن الحسن في العبارة هو إسناد فعل الاشتعال إلى الرأس، والمجيء بالشيب الذي له الفعل في المعنى منصوباً بعده. وهذا المسلك في نظم العبارة يشحنها بدلالات جديدة لم تكن ممكنة لو أُسند الاشتعال إلى الشيب مباشرة؛ وذلك أنّ إسناد الاشتعال إلى الرأس يفيد -بالإضافة إلى لمعان الشيب في الرأس- الشمولَ والشيوع.

---

[73]-ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص97-98.

وممّا هو من جنس النظم في هذه العبارة تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، ولو صُرّح بالإضافة فقيل: (واشتعل رأسي) لذهب كثير من حسنها[74].

ويتّسع نطاق النظم -أيضاً- ليخرج عن حدّ الجملة الواحدة إلى جملتين أو أكثر في باب الوصل والفصل، وما يتضمنّه من عطف بعض الجمل على بعض أو ترك العطف والمجيء بها مستأنفةً.

ومن الملائم هنا أن نتذاكر أنّ حروف العطف تفيد إشراك ما بعدها لما قبلها في الحكم الإعرابيّ، بالإضافة إلى معانٍ أخرى: كالترتيب مع التعقيب في الفاء، والترتيب مع التراخي في (ثمّ)، والتخيير في (أو). وبسبب هذا المعنى الإضافي الذي يفيده كلٌّ من هذه الحروف فإنّه لا يَعرِض فيها إشكالٌ في لزوم العطف أو تركه؛ لأنّنا متى احتجنا إلى الدلالة على أيٍّ من تلك المعاني جئنا بالحرف المختصّ به.

ولكنّ الإشكال يعرض في الواو؛ لأنها لا تفيد – بالإضافة إلى الإشراك في الحكم الإعرابيّ – أيّ معنى. وهنا يصبح لا بدّ من اللجوء إلى صناعة النظم واستقراء لطائفها في كلام العرب من شعر وغيره؛ لمعرفة متى يحسن العطف بالواو، ومتى يحسن القطع والاستئناف، ومتى تكون المزيّة لهذا، ومتى تكون لذاك. فالوصل والفصل بابٌ من أبواب النحو، ولكنّ التصرّف فيه للإتيان بمعنى بارع، والسلوكَ به مسالك دقيقة خفيّة هو من شأن النظم.

يخبرنا الجرجانيّ أنّ الوصل يحسن بين الجملتين إذا كان ثمّ علاقةٌ بين المحدَّث عنه في إحداهما والمحدَّث عنه في الأخرى، وكان الخبر عن الثاني ممّا له صلة بالخبر عن الأوّل؛ كأن يكون شبيهاً له أو نظيراً أو نقيضاً، كما يُقال: زيدٌ كاتبٌ، وأخوه شاعر. وتزداد الحاجة إلى العطف إذا كان المتحدَّث عنه في الجملتين واحداً، كقولنا: عمرو يضرّ وينفع، ويحسن ويسيء[75].

بينما يحسن الفصل في كلّ جملة كان حالها مع ما قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكَّد، فتتصل بها من ذات نفسها وتستغني عن حرف العطف؛ كما في قوله تعالى: "إنّ الذين كفروا

---

[74]-ينظر: المصدر نفسه، ص99-101.

[75]-ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص 224-226.

سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم؛ لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذابٌ عظيم"[76]؛ فإنّ قوله "لا يؤمنون"تأكيد لقوله "سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم "[77]، وممّا حقّه الفصل أيضاً ما يجيء من الجمل على معنى جواب لسؤال مقدّر؛ كما في قول الشاعر:

قال لي: كيف أنت؟ قلت عليلُ

سهرٌ دائمٌ، وحزنٌ طويلُ [78]

فقدّر الشاعر أنّ الذي سأله عن حاله، أتبع سؤاله بسؤال آخر عن علّته، فأجابه: سهرٌ دائم وحزن طويل[79]. ومن هذا الفنّ كلّ ما يرِد في القرآن من لفظ (قال) مفصولاً عمّا قبله، أنّه على تقدير سؤال محذوف.[80]

ومن فنون النظم الدقيقة التي بيّنها الجرجاني في هذا الباب أنّ عطف الجملة لا يكون دائماً على ما قبلها مباشرة؛ ولكنّها قد تُعطف على جملة يفصلها عنها جملةٌ أو أكثر. كما في قول المتنبّي:

تولّوا بغتةً فكأنّ بيناً

تهيّبني ففاجأني اغتيالاً

فكان مسير عيسهمُ ذميلاً

وسير الدمع إثرهم انهمالاً[81]

[76]-سورة البقرة/ 06-07.

[77]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص227-228.

[78]-علق عليه المحقق بقوله: "مشهور غير منسوب"، في الحاشية1، ص238.

[79]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: المصدر السابق، ص238.

[80]-المصدر نفسه، ص240.

[81]-ديوان المتنبي، انظر الحاشية1 من حواشي محقق دلائل الإعجاز، ص244.

فيتّضح بعد ترديد النظر أنّ جملة (كان مسير عيسهم ذميلاً) ليست معطوفة على جملة (كأنّ بيناً تهيّبني)؛ لأنّ عطفها يُفسد المعنى؛ إذ يُدخلها في معنى (كأنّ)، ويصبح السير مشكوكاً فيه، وليس هذا مقصود الشاعر، وإنّما يستقيم المعنى إذا عُطفت على (تولّوا بغتة). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ جملة (كان مسير عيسهم ذميلاً) ليست معطوفة على جملة (تولّوا بغتة) وحدها، وإنّما هي معطوفة على البيت السابق كلّه؛ لأنّ (كأنّ بيناً تهيبني) مرتبطةٌ بقوله (تولّوا بغتة) ارتباط سببيّة؛ بمعنى أنّ الثانية مسبَّب والأولى سبب؛ فكأنه قال (تولّوا بغتة فتوهّمتُ أنّ بيناً تهيّبني).

وكذلك فإنّ قوله (كان مسير عيسهم ذميلاً) لم يُعطف وحده على البيت السابق، ولكنّ العطف تناول البيت الثاني بجملته، مرتبطاً آخره بأوّله؛ لأنّ تولّيهم بغتة وما توهّمه الشاعر من بَيْنٍ تهيّبه كان مستدعياً بكاءه بدمع منهمل، ولم يكن ذكره لذملان العيس إلا ليذكر هملان الدمع[82].

وهكذا، فإنّ العطف كما يكون بسيطاً؛ عندما تُعطف جملة على جملة، فإنّه قد يجيء مركّباً؛ بأن تعمد إلى جملتين أو أكثر فتعطف بعضها على بعض، ثمّ مجموعها على مجموعٍ سابق[83].

وهذا -فيما يبدو- أوسعُ نطاق تبلغه نظريّة النظم عند الجرجاني؛ أعني الخروج من حيّز الجملة الواحدة إلى حيّز مجموعة محدودة من الجمل، وهو نفس الحيّز الذي تعمل فيه قواعد النحو، مع الفارق بين وظيفة النحو ووظيفة البلاغة.

بين نظرية النظم و البنيوية"

وأجدني في هذا المجال مضطرا لطرح السؤال التالي: هل هناك علاقة بين البنيوية ونظرية النظم؟

---

[82]-ينظر: ديوان المتنبي، انظر الحاشية1 من حواشي محقق دلائل الإعجاز المصدر السابق، ص242-245.

[83]-دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، المصدر السابق، ص245.

وللإجابة عن هذا السؤال سوف أعتمد اعتماداً كبيراً في استجلاء مصطلح البنيويّة على كتاب عبد العزيز حمودة "المرايا المحدّبة (من البنيوية إلى التفكيك)"[84]، محاولا قدر الإمكان أن نقف عند المحطات الأساسيّة التي من شأنها أن تجيب عن السؤال الذي طرحته، ويترتّب على هذا أنّني سأنحو منحى مختصراً، معرضا عن كثير من التفصيلات والتفريعات والتنويعات داخل المدارس اللغويّة والنقديّة التي تبنّت هذا المصطلح طوال عقود من القرن الماضي. ولعلّي لا أبالغ إذا قلت: إنّ مصطلح البنيويّة كان هو المصطلح الأكثر شيوعاً وخطورة في مجالات المعرفة الإنسانيّة عامّة، والأدبيّة خاصّة طيلة تلك العقود.

إذن، سوف أختصر الكلام اختصاراً مقتصرا على تحديد ظروف نشأة المصطلح، ومفهومه، ثمّ طريقة توظيفه في ميدان اللغة والأدب.

و لهذا سيظهر لنا جليا بأن تينيانوف كان "أوّل من استخدم لفظة "بنية" في السنوات المبكّرة من العشرينيّات، وتبعه رومان ياكوبسون الذي استخدم كلمة البنيويّة لأوّل مرّة عام 1929 "[85]

وقد أشارات تطورات الفكر الفلسفي الغربيّ عبر ثلاثة قرون والتحوّلاتُ المعرفيّة التي صاحبت ذلك التطور كلها في اتجاه واحد حتميّ، وهو ظهور الدراسة اللغويّة كعلم مستقلّ بذاته: له قوانينه وقواعده التي تحكم عمل عالم اللغة الذي يستخدم أدوات المنهج التجريبي في علميّة لا تقلّ – إنْ لم تكن تزيد – عن علميّة الدراسات النفسيّة التي كانت قد أكّدت وجودها. وهكذا شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين نشر كتاب "فردينان دي سوسير ": **Cours de linguistics عام 1915م**، والذي يمثّل عدداّ من محاضرات المفكّر السويسري كان قد ألقاها على طلابه قبل ذلك بسنوات. لقد

---

[84]-ينظر: إبراهيم زكريا، مشكلة البنية، سلسلة مشكلات فلسفية، مكتبة مصر، د.ت. وروبنز، ر.هـ: موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب). ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1997. وستروك، جون: البنيوية وما بعدها- من ليفي شتراوس ألى دريدا. ترجمة: محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، فبراير 1996. وفضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النصّ. عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 1992.

[85]-المرايا المحدّبة (من النيويّة إلى التفكيك): حمودة عبد العزيز، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نيسان 1998، ص187.

أصبحت الظروف في الواقع مهيّأةً لظهور ما يُسمّى بالنموذج اللغويّ الذي سيتكفّل البنيويّون –فيما بعد– بتطويره ليصبح أساس المقاربة النقدية (البنيويّة) للنصوص الأدبيّة "[86]

ويرى الدارسون بأنّ أبرز إنجازات دي سوسير والتي تحتلّ مركز الثقل في كتابه هي "نظرية النظام أو النسق System اللغوي الذي يحكم الاستخدام الفرديّ للّغة، هذا بالإضافة إلى تطوير مفهوم العلاقة Sign اللغوية بشقيها: الدالّSignifier، والمدلول Signified "[87].

والنسق اللغويّ –وهو ما يهمنا هنا– "ليس شيئاً ماديّاً محسوساً، شأنه في ذلك شأن قوانين الحركة؛ لذلك فإنّ ما نستطيع أن نبدأ به دراستنا لأيّ لغة هو شواهد الكلام الفرديّ: نسجّلها ونرصدها ونحلّلها، ثمّ ننتقل –بعد ذلك – من مرحلة الرصد والتسجيل إلى الضبط –إلى وضع القواعد العامّة التي تحكم الكلام. هذا هو النسق وهذه هي اللغة. وحينما نصل إلى النسق فإنّ تطبيقه على الكلام– على الحالات الفرديّة لاستخدام اللغة، هو الذي يعطي الكلام معنى، وبدون هذا النسق يصبح الكلام أصواتاً بلا دلالة أو معنى. نفس الشيء بالنسبة للنسق الأدبيّ، حيث يُكسب ذلك النسقُ العامّ الأعمال الفرديّة دلالتها ومعناها "[88].

والنسق الفرديّ –سواء في اللغة أو الأدب– "لا يمثّل أجزاءه؛ لأنّه هو جزء من نسق عامّ، أو من بنية كليّة تحكم قواعد الدلالة داخل النسق الفرديّ "[89]

ويرى الدارسون أيضا بأن النقلة التي حدثت من البنيويّة اللغوية إلى البنيوية الأدبيّة في أوائل الستينيّات هي "المحصّلة الطبيعية لجهود مبكّرة ارتبطت بـ "ياكوبسون "و "وبروب" وجيل من "الشكليين" الماركسيّين، لم تنجح في إنشاء تيّار قويّ قادر على إنشاء مدرسة أو مشروع نقديّ جديد، وقد جاءت الدفعة التي أعطت هذه الجهود زخماً جديداً جمَعها في تيار فرض نفسَه بقوة على الحياة الثقافيّة في

---

[86]- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة: المرجع السابق، ص: 183-184.

[87]-المرجع نفسه، ص 222.

[88]-المرجع نفسه، ص 223.

[89]-المرجع نفسه، ص 225.

الشرق والغرب، من جانب ليفي -شتراوس الذي تحوّل كتابه "الأنثوبولوجيا البنيويّة"(1958م) إلى مرجع أساسيّ في سنوات قليلة. بدايةً، فإنّ دراسة شتراوس في الأنثروبولوجيا البنيويّة أعطت شرعية نهائية لنقل منهج البنيويّة اللغوية إلى محيطات أو أنساق أخرى غير نسق اللغة. وقد كانت تلك النقلة هي النقلة التي انتظرها نقّاد الأدب ليفعلوا الشيء نفسه، وبالنجاح نفسه"[90].

وفيما يخص دراسة فلاديمير بروب المبكّرة عن القصص الشعبية والروايات الخياليّة الروسية Fairy tales، فإنها "لا تقلّ في أهميتها عن دراسة ليفي -شتراوس .... إنّ مناقشة بروب لبناء المئة قصّة التي جمعها تقدّم لنا أوّل دراسة بنيويّة لبناء شكل قصصيّ، هو أقرب إلى الشكل الروائيّ منه إلى بناء الأسطورة. إنّه -بالفعل- يصل في تحليله لتلك القصص إلى تحديد علاقات الوحدات المكوّنة للرواية، وهو إنجاز يضع دراسته المبكّرة في مقدّمة الدراسات البنيويّة المبكّرة للأدب .... إنّ أهميّة بروب كبنيويّ مبكّر تتأكّد بشكل قاطع حينما ينتقل من دراسة القصّة الخياليّة الواحدة كوحدة بنائيّة مفردة، إلى تصوّر بنية كليّة عامّة للقصة، يسمّيها "القصة العمدة أو الأنموذج"، تتوافر فيها كلّ الاحتمالات البنائيّة للإحدى والثلاثين وظيفة [وهي وظائف الشخوص كما استقرأها من جملة قصصه الخرافيّة]"[91].

وإذا كان البنيويّون اللغويّون يقومون، كما نرى دلك في الدراسات اللسانية الحديثة، "بتقسيم النصّ اللغويّ إلى أصغر مكوّناته البنائيّة وهي الفونيمات والمورفيمات، أو إلى أصغر مكوّناته الصوتيّة والشكليّة، فإنّ البنيويّين الأدبيين -وعلى رأسهم ليفي شتراوس- يقسمون النصّ الأدبيّ إلى أصغر مكوّناته البنائيّة، وهي "المايتمات "Mythemes، أو ما يسميها كمال أبو ديب "الأُسَيطرات""[92].

وفيما يتعلّق بمفهوم النسق وتكوّنه وتطبيقه في مجالي: اللغة والأدب، يمكن إجمال ما سبق بأنّ اللغويّات البنيويّة عند تعاملها مع النصّ اللغويّ، في شتى تمظهراته،"تقوم بالبدء من نقطة صغرى: فتبدأ بتحديد العناصر التي ربّما لا يكون لها معنى، مثل: الفونيمات، وهي أصغر عناصر تكوين اللغة.

---

[90]- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة: المرجع السابق، ص 227.

[91]-المرجع نفسه، ص 228-230.

[92]-المرجع نفسه، ص 233.

ثمّ ينتقل التحليل البنيوي لرصد تجميع هذه العناصر في وحدات ذات معنى، وهي الكلمات، ثمّ كيف تُجمع هذه الوحدات الدلاليّة الصغرى في نظام أوسع أو نسق أكبر، وهو اللغة. لكنّ الكلمة بمفردها – معزولة خارج نسق – لا يمكن أن تدلّ أو تشير إلى وحدة أخرى معزولة، ولهذا نتحوّل إلى النسق الأصغر، وهو الجملة. داخل النسق الأصغر، تصبح الوحدة الصغرى[أي الكلمة المفردة] جزءاً من نسق دالّ وتكتسب دلالتها الأوسع من علاقتها مع الوحدات الأخرى داخل النسق. المرحلة التالية أكثر تركيبيّة وتعقيداً، وهي ربط هذه الجمل / الأنساق الصغرى وتجميعها داخل نسق أكبر، هو النصّ.

في النسقين السابقين تتحدّد دلالة الوحدة (الكلمة في الجملة، والجملة في النصّ) عن طريق علاقاتها مع الوحدات الأخرى في ظلّ مبدأ اتّفق حوله البنيويّون جميعاً، وهو التضادّات الثنائية Binary Oppositions. وهناك نسق ثالث هو النسق العامّ أو النظام الذي يحكم الإنتاج الفرديّ للنوع Genre، وهو نسق نتحرّك في اتجاهه انطلاقاً من النصوص الفرديّة، أو منطلقين منه في اتجاه النصّ الفردي في تحليل تطبيقي يؤكّد اتّفاق النص المفرد أو النسق الأصغر، أو اختلافه مع النسق أو النظام العامّ[93].

بعدما فرغنا من تلك الإطلالة السريعة والإلمامة المتعجّلة بمصطلح البنية، نرجع بعدها إلى نظرية "النظم" عند الجرجاني، لنحكم على مدى اقتراب صاحبنا أو ابتعاده في نظريّته عن هذا المصطلح الحديث، مستفيدين في ذلك من آراء مَنْ سبقنا إلى الخوض في هذا الموضوع من النقّاد المعاصرين، لنقف على رأي النقد الحديث في "نظرية النظْم "للجرجانيّ.

وعليه، آن لنا أن نبسط القول في تقييم هذا النقد لتلك النظريّة، بعد ما أسلفنا من وقوفٍ عند أبرز محطّات "نظرية النظم " للجرجاني، وتعريجٍ على مفهوم "البنية" في النقد الحديث، عن طريق بيان مدى صلتها بأكثر مفاهيمه مركزيّة – أعني: مفهوم "البنية".

---

[93]-ينظر: عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة: المرجع السابق، ص 253-254.

لا شكّ في أنّ "نظريّة النظم" هي أفضل وأرقى ما توصّلت إليه البلاغة العربيّة في تاريخا كلّه: قبل الجرجانيّ وبعده، وأنّها تمثّل تصوّراً متماسكاً ومنظّماً ودقيقاً لبناء البلاغة العربيّة.

بل لعلّنا لا نبالغ إذا قلنا: إنّ البلاغة العربيّة – على طول تاريخها – لم تنتج أيّة نظريّة بلاغيّة – بالمعنى الصحيح والدقيق والعلميّ للكلمة – سوى نظريّة الجرجاني، وإذا قلنا – أيضاً – : إنّ الدارس لتاريخ البلاغة العربيّة لن يقف عند أيّة محطّة فيها وقوفَه عند محطة الجرجاني، دون أن يُفهم من هذا – من قريب أو بعيد – أننا ننكر قيمة الأعمال السابقة للجرجاني في التمهيد لنظريته، ابتداءً بالجاحظ وانتهاء بالقاضي عبد الجبار المعتزليّ، ولكنّ الأقدار اسعدته بأن كان هو الذي قطف الثمرة، ودون أن يُفهم –كذلك – أنّنا ننكر قيمة المحاولات التي سارت في اتّجاهات مغايرة لاتّجاه الجرجاني، ولكنّنا هنا نتحدث عن نظريّات، ولا أظنّ أنّه بإمكاننا أن نُثبت هذا المصطلح – إذا تحرينا النهج العلميّ والموضوعيّ – لأيّ من تلك المحاولات.[94]

الخاتمة: خلاصة و تركيب

وما نخلص إليه هو أن نظرية النظم كانت – بحق – مقدّمة أو نواة لنظرية بلاغية عربيّة فذّة، لو قُيّض لها من ينطلق منها ويتمّمها بعد الجرجاني، كانت – عندئذ – ستترقّى إلى نظرية ربّما تفوق كلّ النظريّات الحداثيّة اليوم، ولكنّها – وهذا ممّا يؤسف له – توقّفت عند الجرجاني.

اعتمد عبد القاهر الجرجاني في تحليل الكلام على توجه عقلي مسبق و أسس معرفية واضحة تيسرت له باعتقاد مطلق مفاده أن ,,قضايا العقول هي القواعد و الأسس التي ينبني غيرها عليها و الأصول التي يرد ما سواها إليها ,,[1] فنجح في تطوير فكرة ,,النظم" و اتخذها سبيلا إلى تحليل أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز معا.

ـ و قد استفاد عبد القاهر من جهود سابقيه من أمثال الجاحظ و الباقلاني و القاضي عبد الجبار و غيرهم [2] في تحديد مفهوم النظم و إرساء أسسه من جهة و ربطه بالإعجاز القرآني من جهة أخرى.فكيف عرف النظم؟ و ما بيان المزية فيه؟ و ما علاقته بالإعجاز القرآني؟

انطلق عبد القاهر من ثنائية اللفظ و المعنى و ما ترتب عنهما من مبالغات في تفضيل الواحد عن الآخر، و كانت من أبرز المسائل التي اعتنى بها في كتابيه، و كيف لا و اللفظ و المعنى أساس الظاهرة اللغوية، وجوهر الكلام من حيث تآلفهما و توافقهما في المفردة الواحدة أو أكثر من ذلك تركيبا.

94-ينظر: المرايا المحدبة: عبد العزيز حمودة، المرجع السابق، ص: 253-254.

توصل الجرجاني إلى أن وحدات اللغة ألفاظ، و بفضل النحو نستعمل الألفاظ لنشكل التراكيب، و هي تتجدد دائما بفضل النحو و لإعادة تراكيبها، و بالتالي فالألفاظ عند الجرجاني رموز للمعاني، و الإنسان يتعرف على مدلول اللفظ المفرد أولا، ثم يتعرف على مدلوله داخل التركيب فالألفاظ سمات لمعانيها، و لا يمكن أن تسبق الألفاظ معانيها ,,و هل كانت الألفاظ إلى من أجل معانيها؟ و هل هي إلا خدم لها؟ و مصرفة على حكمها؟ أو ليست هي سمات لها، و أوضاع قد وضع لتدل عليها؟ كيف يتصور أن تسبق المعاني أو تتقدمها في تصور النفس و إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء، و قبل أن كانت، و ما أدري ما أقول في شيء يجر الذاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال، و رديئ الأحوال.'' [3]

و من ها هنا لا يكون اللفظ إلا وعاء يتشكل به المعنى.و ليس له أي فاعلية جمالية للنص مهما كانت في تناسق أصواته و صحة معناه مفردا، كما لا يمكن أن يكون به شكل من الإعجاز لوحده و هذا ما يؤكده عبد القاهر ,,و اعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف و سلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيها يوجب الفضيلة، و أن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز و إنما الذي ننكره، و نفيل رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده و يجعله الأصل و العمدة '' [4]

أكد عبد القاهر أهمية المعنى من خلال ما أثبته في أن البلاغة لا يمكن أن تكون إلا في المعنى دون اللفظ، و بالتأليف دون اللفظة المفردة من خلال عملية تأويل النص الأدبي. '' و لقد لمس الجرجاني هنا، و إن لم يصغ ذلك صياغة واضحة، أهم خاصية من خصائص الوظيفة الأدبية حسب أحدث النظريات الغربية المعاصرة في النص و هي نظرية تذهب إلى اعتبار التأويل من مميزات ظاهرة الأدب لأن تراكب مبدأ التشابه [5] و هو من مميزات محور الاستبدال، على التلاصق [6]، يخلق في النص ضربا من الكثافة المعنوية و الإشكال فتمكن قراءته بصورة مختلفة، يقول الجرجاني: ,,و اعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئا أو تحول كلمة من مكانها إلى مكان آخر، و هو الذي وسع مجال التأويل و التفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر و يفسرون البيت الواحد عدة تفاسير.'''' [7]

و يفرق الجرجاني بين نظم الكلام و نظم الحروف، فنظم الحروف ,,هو تواليها في النطق فقط، و ليس نظمها بمقتضى عن المعنى، و لا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل، اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: ربض، مكان ضرب، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، أما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمه أثار المعاني و ترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء و اتفق.'' [8] فالألفاظ المفردة لا مزية فيها و إنما تعليق بعضها ببعض و جعل بعضها سبب لبعض و تأليفها و ترتيبها بحسب ما يقتضيه علم النحو هو المزية و حسن السبك و الانسجام.

ارتكز الجرجاني في نظرية النظم على التمييز بين اللغة و الكلام و هو توجه يتفق فيه مع المحدثين من اللسانيين الغرب في كثير من الاختصاصات و الفروع اللسانية، كما ذهب إلى ذلك الباحث عبد القادر المهيري حين جمع كل جهوده اللغوية و درسها بمنهجية لسانية حديثة جمع فيها بين المبدع و المقلد. [9]

و قد انتفع بذلك حين بحث في فضل كلام عن كلام في نفس اللغة و توصل إلى أن التمايز ناتج على أن المعنى الناشئ بالكلام مختلف عن معاني الوحدات اللغوية المكونة له، لأننا في الكلام نتوخى نهجا في الدلالة يختلف من حيث نوعه عن نهج اللغة، فتصبح العلاقات التي ينشئها المتكلم بين وحدات السياق هي الدالة، لا الكلمات في حد ذاتها، أو هي بعبارة أخرى دلالة نشأت من تجاوز دلالة الكلمات مفردة، وهو بهذا يتبنى موقفا يكاد يكون شكليا، و ينم عن فهم عميق للتحول الذي يطرأ على الظاهر اللغوية وقت يصوغها المتكلم و يخرجها من محور الاستبدال الثابت الساكن إلى محور التوزيع الديناميكي المتحرك و إذ ذاك يصبح المعنى غير منحصر فيما تؤديه جملة الكلمات، و إنما هو معنى جديد لا وجود له خارج سياقه. يقول:''و اعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، و ذلك أنك إذا قلت: ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا تأديبا له، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهمه الناس، و ذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها، و إنما جئت بها لتفيده وجود التعلق.'' [10]

لقد استعمل الجرجاني لفظة التعليق ليشير إلى التأليف و الصياغة و البناء و الوشي و التخبير و النسخ بين أجزاء الكلم كلها ألفاظ من جنس التماسك و الانسجام الواقع في الكلام الواحد الناتج عن تعالق معانيه بتناسق ألفاظه بعضها ببعض داخل مقام مشترك لا ينبو من فرقة.

و أدرك الجرجاني أن الألفاظ لا تفاضل بينها من حيث أنها ألفاظ مفردة منفصلة، بل التفاضل يحدث عند ملائمة معناها لمعنى اللفظة التي تليها في السلسلة اللغوية و هذا يجري على سائر الكلام و تحدث المزية كلها فيه.

كما أدرك أن ترتيب الألفاظ في النطق يجري على ترتيب المعاني في النفس، و أن العملية فكرية محضة و تتم في نفس الوهلة حين تخرج في صورة أدبية بليغة و تامة البيان.

و الجرجاني في موقفه من اللفظ لم يتحيز للمعنى كليا و إنما كان يعتقد بتلازمهما نظرا لطبيعة الوظيفة الدلالية التي يقدماها معا للكشف عن الصورة داخل النص. ,,إذ لا يعقل أن يقصد أولا إلى ترتيب المعاني في استقلال عن اللفظ، ثم بعد ذلك يستأنف النظر في الجملة الدالة عليها، و لا يقصد إلى ترتيب الألفاظ و تواليها على نظام خاص في استقلال عن الفكر، و يمكن هنا الترتيب للألفاظ يقع ملازما للمطلوب الأول، و هو المعنى المدلول عليه في الصورة.'' [11] كما جعل مراعاة السياق من شروط فصاحة الكلام و بيانه، إذ اللفظة التي توضع في سياقها التي جعلت لأجله، و كانت متفقة و مرتبة مع ما سبقها من ألفاظ و ما يلحقها و تؤدي فائدة دلالية في الكلام، كانت في منتهى الفصاحة و البيان، و يضرب لنا في ذلك مثلا حين قال: ,,و لو عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء و اتفق و أبطل نضده و نظامه الذي عليه بني و فيه أفرغ المعنى و أجرى، و غير ترتيبه الذي أفاد ما أفاد فقيل:''قفا نبكي من ذكرى حبيب و منزل. و منزل قفا ذكرى من نبك حبيب'' خرج عن كمال البيان إلى مجال الهذيان و سقطت نسبته من صاحبه.'' [12]

حدد الجرجاني معاني الألفاظ التي يولدها السياق، داخل الصياغة اللغوية من خلال ما صرح به فيما يلي: ,,ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، و قبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبار و أمرا و نهيا و استخبارا و تعجبا و تؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، و بناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناه الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به.'' [13] يمكننا حصرها فيما يلي:

1. ينبغي أن ينظر إلى كلمة قبل دخولها في التأليف = المعنى المعجمي (الكلمة المفردة).
2. و تؤدي في الجملة معنى من معاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، و بناء لفظة على لفظة = المعنى الوظيفي (معاني النحو + سياق المقام + الأسلوب + الوزن...إلخ.)
3. هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به =المعنى الدلالي. (و هو المعنى الحاصل الذي يصل إليه القارئ جملة واحدة).

كما يمكننا ، نعبر عنها بالمعادلة التالية:

المعنى المعجمي + المعنى الوظيفي= المعنى الدلالي.

و هنا يحصل التفوق و الإبداع و التميز عند الجرجاني في نظرته إلى المعنى عن سابقيه من البلاغيين و النحويين.

لم يكتف عبد القاهر الجرجاني بتحديد مصدر المعنى الدلالي بل تعداه إلى ما وراء الدلالة حين تحدث عن المعنى و معنى المعنى فقال:''المعنى و معنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ و الذي تصل إليه بغير واسطة،و بمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر.'' [14] . ,,فالمعاني الأولى هي التي تفهم من نفس الألفاظ، و المعاني الثواني هي التي يومأ إليها بتلك المعاني.'' [15]، فيلخص المعنى الدلالي == معنى المعنى.

فالصورة الأدبية لا تخلو من معاني المعاني، و يمكن إدراكها من خلال المجاز كالكناية و الاستعارة و التشبيه و التمثيل حيث لا تكون الدلالة على الغرض من اللفظ مجردا، و لكن لابد من إخضاع المجاز إلى فاعلية النحو من جهة معانيه و ما يتعلق بذلك من خصائص. ,,إن الاستعارة و الكناية و التمثيل و سائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم و عنها يحدث و بها يكون،لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم و هي أفراد لم يتوفر فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون هاهنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره، أفلا ترى أنه إن قدر ,,في اشتعل'' من قوله تعالى:''و اشتعل الرأس شيبا'' أن لا يكون الرأس فاعلا له و يكون شيبا منصوبا على التمييز لم يتصور أن يكون مستعارا و هكذا السبيل في نظائر الاستعارة '' [16]

لقد ربط الجرجاني في عبارته بين النظم و المجاز و أحكام النحو و السياق (التأليف). و يمكننا أن نعبر عنها بما يلي:

النظم= المجاز (اسم أو فعل دخلته الاستعارة مثلا) + أحكام النحو (معاني النحو) + السياق (تأليف اللفظ مع غيره).

و ما يجري على الاستعارة يجري على غيرها من أساليب المجاز.

تحدث الجرجاني عن أحكام النحو، و عن النظم. فما هي أحكام النحو؟ و ما هو النظم؟

للإجابة على السؤالين نقف عند نص للجرجاني حاول فيه توضيح مفهوم المصطلحين حيث قال:''و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو و تعمل على قوانينه و أصوله و تعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها و تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها و ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب و فروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك ,,زيد منطلق'' و,,زيد ينطلق'' و ,,ينطلق زيد,,و ,,منطلق زيد,,و ,,زيد المنطلق,,و ,,المنطلق زيد,,و ,,زيد هو المنطلق,,و ,,زيد هو المنطلق'' وفي الشرط و الجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: ,,إن تخرج أخرج'' و,,و إن خرجت خرجت,,و'' إن تخرج فأنا خارج'' و ,,أنا خارج إن خرجت'' و ,,أنا إن خرجت خارج,,. و في الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: ,,جاءني زيد مسرعا.'' و,,جاءني يسرع,,و ,,جاءني و هو

مسرع" أو ,,هو يسرع" و ,,جاءني قد أسرع" و ,,جاءني و قد أسرع" فيعرف لكل من ذلك موضعه و يجيء به حيث ينبغي له، و ينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصه في ذلك المعنى، فيضع كل ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بـ,,ما" في نفي الحال، و بـ ,,لا" إن أراد نفي الاستقبال و بـ ,,إن" فيما يترجح بين أن يكون و أن لا يكون، و بـ ,,إذا" فيما علم أنه كائن، و ينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء و موضع الفاء من موضع ,,ثم" و موضع ,,أو" من موضع ,,أم" و موضع ,,لكن " من موضع ,,بل" و يتصرف في التعريف و التنكير، و التقديم و التأخير في الكلام كله، و في الحذف و التكرار، و الإضمار و الإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه و يستعمله على الصحة و على ما ينبغي له.

هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا و خطؤه إن كان خطأ إلى النظم، و يدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، و وضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، و استعمل في غير ما ينبغي له." [17]

يمكننا أن نستخلص من هذه المدونة الجرجانية ما يلي:

1. النظم هو وضع الكلام حسب ما يقتضيه علم النحو. من قوانين و أصول و مناهج.
2. و قوانين النحو و أصوله و منهاجه هي: الخبر - الحال - الفصل و الوصل - التعريف - التنكير التقديم التأخير الحذف التكرار الإضمار و الإظهار. أدوات الشرط و الجزاء و لا يقصد الجرجاني بالقوانين و الأصول الحركات الإعرابية التي تظهر على أواخر الكلمات، لأنها لا تؤدي وظيفة في المعنى، و لا يقع لأجلها التفاضل ,,و من العجب أنا إذا نظرنا في إعراب وجدنا التفاضل فيه محالا لأنه لا يتصور أن يكون للرفع و النصب في الكلام مزية عليهما في كلام آخر..." [18]
3. يعمد إلى تسمية كل منهج بالباب و يدعو الناظم أن يكون عارفا بوجوهه و فروقه. كقولنا: باب الفصل و الوصل مثلا و ما يترتب عليه من وجوه و فروق.
4. و لكل من الأبواب سابقة الذكر فروقا و وجوها و مواضع توفرها اللغة للناظم لصياغة الوظيفة النحوية الواحدة و هي معنوية و بناؤها يأتي على توافق مع مقام معين و لغرض دون الآخر. أنظر كيف تحدث في وجوه و فروق مواضع الخبر مثلا حين عدد الأمثلة فيه إلى ثمانية و جعل البنية الأولى: ,,زيد منطلق" و هي تمثل البنية النواة العميقة. ثم قام بتحويلها إلى سبعة من البنى السطحية، و جعل لكل بنية خصوصية معنوية تميزها عن الأخرى من خلال ما أضاف إليها من فروق و وجوه و تغيير للمواضع حسب ما يقتضيه سياق المقال. و هذا التحليل يجري مجرى اللسانيات الحديثة.
5. يختم الجرجاني نصه باعتبار النظم سبيلا من سبل تحقيق معاني النحو في الكلام، و كأنه يقول أن النظم هو معاني النحو.

و النظم عند الجرجاني يأخذ منحى عقلي عند تناوله للعلاقات الدلالية ,,ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها و تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل." [19] فتناسق الدلالات و تلاقي العاني في الكلام لا يمكن تفسيره عند الجرجاني إلا بالطريقة الموالية " تبلور الأفكار في النفس و انتظامها انتظاما نظريا مجردا حسب مقولات الفكر، ثم بروز الحاجة إلى الرموز و العلامات لأن الفكر لا يلتبس بالفكر، و الجوهر لا يدل على الجوهر فتستبدل المعاني المجردة بالسمات و العلامات الدالة عليها، ثم ترتب هذه العلامات على النسق الذي ترتب حسبه المعني في النفس." [20] و بهذا ينطبق اللفظ بالمعنى و تكون الملاءمة بينهما حاصلة و المزية كلها.

و كتاب ,,دلائل الإعجاز مدونة واضحة المعالم و المفاهيم، في علم النص الحديث " و على هذا الأساس رأى بعض الباحثين إمكانية لإدراج نظرية النظم ضمن أحد النماذج اللسانية الحديثة و بالتدقيق " داخل إطار توليدي بالخصوص النماذج التوليدية القائلة بقاعدية المكون الدلالي" لأنهم وجدوا في نصه السابق ما يدل على أنه يميز بين مستويين:

1. مستوى عميق غير مشتمل عل المعاني الدلالية.
2. مستوى سطحي منطوق يتم فيه نظم المقال على مرحلتين:

أ – مرحلة تستبدل فيها المعاني العميقة بألفاظ القاموس.

ب – و مرحلة تعلق فيها هذه الألفاظ بعضها ببعض حسب قواعد التركيب. [21] و يقيننا أن ما خلفه الجرجاني خطرات لسانية لا يحترز من تبانيها اللسانيون المعاصرون..." [22]

كما ضمن كتابه دلائل الإعجاز باب سماه ,,باب الفصل و الوصل" و هو من أعظم الأبواب التي أثبت من خلاله فهم النص من داخلياته، و ذلك عن طريق توضيح مفهوم الوصل باستعمال حروف العطف التي تربط بين الجملتين و تحدث بذلك تكاملا دلاليا عميقا في المعنى، و الفصل الذي يفتقد لحروف الربط و العطف نظرا لوجود عنصر طارئ يفصل بين

الجملتين في العمق، إلا أنه لا يعبر عن الفصل بل الالتحام. و جعل منهما سرا من أسرار بلاغة الكلام حيث قال:" ما ينبغي أن يصغ في هذا المجال من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف قبل المجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى من أسرار البلاغة." [23] و هذا وجه من وجوه تماسك النص و انسجامه، و آلية فنية لا تقل أهمية عن ما يقيمه أعلام اللسانيات النصية الحديثة من آليات التحليل النصي. من التماسك الشكلي الذي تلعب فيه حروف العطف دور الربط بين الجمل. مرورا بالتماسك الدلالي العميق و وصولا إلى التماسك الكلي للكلام.

كاد الجرجاني أن يتعدى الجملة في نظرية النظم، و يتخطى حدودها بنظرة واسعة وتمثيل شاسع حين استعان بمثال الصبغة في شرح مزية النظم، حيث قال:"و اعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه و الحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق و ينضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه و لا تقضي له بالحذق و الأستاذية وسعة الذرع و شدة المنه حتى تستوفي القطعة." [24]

فالكلام الحسن النظم يشبه أجزاء الصبغ التي تتلاحق و ينضم بعضها إلى بعض حتى تكبر و تصبح قطعة، و قطعة الصبغ كالنص الذي تتلاحم جمله و تتماسك في نسيج واحد.

إلا أن الجرجاني بقي بعيدا عن تطبيق هذه الفكرة و إن كان يحوم حولها، و ما يصدق على الجملة يصدق على الجمل.

و قد بلغت نظرية النظم بما حوت من معاني النحو و أسرار البلاغة درجة في تفسير إعجاز القرآن الكريم، و باتت سبيلا لا يستغنى عنه في كشف معانيه و نظامه المتميز، حيث لجأ إليها الكثير من المفسرين العرب للقرآن الكريم أمثال الزمخشري و الفخر الرازي و البيضاوي و الطاهر بن عاشور و غيرهم.

و لعلنا لا ندرك أهمية النظم بالنسبة للإعجاز إلا من خلال المثال الذي جاء به الجرجاني في قوله:"خذ إليك الآن بيت الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسف اللفظ:

و ما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه.

فانظر أتتصور أن يكون ذلك اللفظ من حيث أنك أنكرت شيئا من حروفه أو صادفت وحشا غريبا أو سوقيا ضعيفا؟ أم ليس إلا أنه لم يرتب الألفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر، فكد و كدر، و منع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم و يؤخر، ثم أسرف في إبطال النظام و إبعاد المرام و صار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة، و لكن أن يراجع فيها بابا من الهندسة لفرط ما عادى بين أشكالها و شدة ما خالف بين أوضاعها..." [25]

يشبه الجرجاني استعمال اللفظ في غير موضعه (متعسفا) في الكلام بتفكيك أجزاء الصورة و بعثرتها. ثم لإعادة تركيبها و ترتيبها ترتيبا صحيحا لابد أن يراعى فيها هندستها من حساب و كيل و قياس و تخطيط.

فكذلك الكلام المتكلف و المعقد في تركيبه من أمثال بيت الفرزدق المذكور لإعادة هندسته و نظمه و ترتيبه لابد من قياس أبعاده و حسابها و تقديرها و تخطيطها، بملائمة ألفاظها لمعانيها و مراعاة غرضها و سياقها بحسب ما تقتضيه أساليب الكلام و الذوق إلى أن يصل الكلام أعلى درجات النظم في هندسته و ذلك هو الإعجاز، الذي بحث في منشأه الجرجاني و كان سببا لكل ما قدمه من جهود في دراسة الكلام بين النحو و البلاغة و النقد.

---

1 - أسرار البلاغة.ط.إسطنبول.1954.ص345. نقلا عن حمادي صمود التفكير البلاغي عند العرب.ص438.

2 - أمثال : الرماني (ت386هـ) في رسالة ,,النكت" و الخطابي (ت 388هـ) في ,,بيان إعجاز القرآن,,.

3- الجرجاني. دلائل الإعجاز:379. نقلا عن البلاغة و الأسلوبية د.محمد عبد المطلب.ص44.

4 - الجرجاني. دلائل الإعجاز:43. نقلا عن التفكير البلاغي عند العرب. حمادي صمود. ص419.

5 - SIMILARITE.

6 - CONTIGUITE.

7 - الجرجاني. دلائل الإعجاز، طبعة المنار،ص 286. نقلا عن التفكير البلاغي عند العرب. حمادي صمود. ص424.

8 - الجرجاني دلائل الإعجاز ص 93. نقلا عن قراءة في النقد القديم. د.بسيوني عبد الفتاح فيولا. ص246.

9 - مقال نشره في حوليات الجامعة التونسية، 1974/11. ص83-108.

10 - الجرجاني. دلائل الإعجاز، طبعة المنار،ص 316. نقلا عن التفكير البلاغي عند العرب.

11 - الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص327.

12 - الجرجاني أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا، ط6 ، القاهرة 1959.ص: 4.

13 - الجرجاني دلائل الإعجاز.ص47.

14 - الجرجاني دلائل الإعجاز.ص :262 - 263.

15 - المصدر السابق.ص:263 - 264.

16 - الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص:261.

17 - الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص:64-65.

18 - الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص:306.

19 - الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص:40 -41.

20 - حمادي صمود. التفكير البلاغي عند العرب.ص:454.

21 - أحمد المتوكل، نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني، ضمن لسانيات و سيمائيات، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط. 1976. ص: 87 - 96. نقلا عن: التفكير البلاغي عند العرب. لحمادي صمود. ص454 - 455.

22 - حمادي صمود. التفكير البلاغي عند العرب.ص:454 - 455.

23 - الجرجاني دلائل الإعجاز. ص:252.

24 - الجرجاني دلائل الإعجاز. ص:124.

25 - الجرجاني. أسرار البلاغة.ص15.